سورة التكاثر

ثمان آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: الإلهاء: الصرف إلى اللهو. واللهو: الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى، ومعلوم أن الانصراف إلى الشيء يقتضي الإعراض عن غيره، فلهذا قال أهل اللغة: ألهاني فلان عن كذا أي أنساني وشغلني، ومنه الحديث: «أَنَّ الزُّبَيْرَ كَانَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعدِ لَهَى عَنْ حَدِيثِهِ» أي تركه وأعرض عنه، وكل شيء تركته فقد لهيت عنه. والتكاثر: التباهي بكثرة المال والجاه والمناقب، يقال: تكاثر القوم تكاثرًا إذا تعادلوا ما لهم من كثرة المناقب، وقال أبو مسلم: التكاثر تفاعل عن الكثرة، والتفاعل يقع على أحد وجوه، ثلاثة: يحتمل أن يكون بين الاثنين فيكون مفاعلة، ويحتمل تكلف الفعل، تقول: تكارهت على كذا، إذا فعلته وأنت كاره، وتقول: تباعدت عن الأمر، إذا تكلفت العمى عنه وتقول: تغافلت، ويحتمل أيضًا الفعل بنفسه كما تقول: تباعدت عن الأمر، أي بعدت عنه، ولفظ التكاثر في هذه الآية يحتمل الوجهين الأولين، فيحتمل التكاثر بمعنى المفاعلة لأنه كم من إثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[الكهف: ٣٤] ويحتمل تكلف الكثرة فإن الحريص يتكلف جميع عمره تكثير ماله، واعلم أن التفاخر والتكاثر شيء واحد، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾[الحديد: ٢٠].

المسألة الثانية: اعلم أن التفاخر إنما يكون بإثبات الإنسان نوعًا من أنواع السعادة لنفسه، وأجناس السعادة ثلاثة: فأحدها: في النفس والثانية: في البدن والثالثة: فيما يطيف بالبدن من خارج: أما التي في النفس فهي العلوم والأخلاق الفاضلة، وهما المرادان بقوله حكاية عن إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الشعراء: ٨٣] وبهما ينال البقاء الأبدي والسعادة السرمدية. وأما التي في البدن فهي الصحة والجمال وهي المرتبة الثانية. وأما التي تطيف بالبدن من خارج فقسمان: أحدهما: ضروري وهو المال والجاه والآخر غير ضروري وهو الأقرباء والأصدقاء، وهذا الذي عددناه في المرتبة الثالثة إنما يراد كله للبدن، بدليل أنه إذا تألم عضو من أعضائه فإنه يجعل المال والجاه فداء له.

وأما السعادة البدنية فالفضلاء من الناس إنما يريدونها للسعادة النفسانية، فإنه ما لم يكن صحيح البدن لم يتفرغ لاكتساب السعادات النفسانية الباقية. إذا عرفت هذا فنقول: العاقل ينبغي أن يكون سعيه في تقديم الأهم على المهم، فالتفاخر بالمال والجاه والأعوان والأقرباء تفاخر بأخس المراتب من أسباب السعادات، والاشتغال به يمنع الإنسان من تحصيل السعادة النفسانية بالعلم والعمل، فيكون ذلك ترجيحًا لأخس المراتب في السعادات على أشرف المراتب فيها، وذلك يكون عكس الواجب ونقيض الحق؛ فلهذا السبب ذمهم الله تعالى فقال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ويدخل فيه التكاثر بالعدد وبالمال والجاه والأقرباء والأنصار والجيش، وبالجملة فيدخل فيه التكاثر بكل ما يكون من الدنيا ولذاتها وشهواتها.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ يحتمل أن يكون إخبارًا عنهم، ويحتمل أن يكون استفهامًا بمعنى التوبيخ والتقريع، أي أألهاكم، كما قرئ (أنذرتهم) و﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٦]، و(إذا كنا عظامًا) و﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

المسألة الرابعة: الآية دلت على أن التكاثر والتفاخر مذموم، والعقل دل على أن التكاثر والتفاخر في السعادات الحقيقية غير مذموم، ومن ذلك ما روي من تفاخر العباس بأن السقاية بيده، وتفاخر شيبة بأن المفتاح بيده إلى أن قال علي عليه السلام: وأنا قطعت خرطوم الكفر بسيفي فصار الكفر مثلة فأسلمتم. فشق ذلك عليهم فنزل قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ [التوبة: ١٩] الآية وذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] أنه يجوز للإنسان أن يفتخر بطاعاته ومحاسن أخلاقه إذا كان يظن أن غيره يقتدي به، فثبت أن مطلق التكاثر ليس بمذموم، بل التكاثر في العلم والطاعة والأخلاق الحميدة هو المحمود، وهو أصل الخيرات، فالألف واللام في التكاثر ليسا للاستغراق، بل للمعهود السابق، وهو التكاثر في الدنيا ولذاتها وعلائقها، فإنه هو الذي يمنع عن طاعة الله تعالى وعبوديته، ولما كان ذلك مقررًا في العقول ومتفقًا عليه في الأديان، لا جرم حسن إدخال حرف التعريف عليه.

المسألة الخامسة: في تفسير الآية وجوه: **أحدها:** ألهاكم التكاثر بالعدد، روي أنها نزلت في بني سهم وبني عبد مناف، تفاخروا أيهم أكثر فكان بنو عبد مناف أكثر فقال بنو سهم: عدوا مجموع أحيائنا وأمواتنا مع مجموع أحيائكم وأمواتكم. ففعلوا فزاد بنو سهم، فنزلت الآية، وهذه الرواية مطابقة لظاهر القرآن؛ لأن قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يدل على أنه أمر مضى، فكأنه تعالى يُعَجبهم من أنفسهم، ويقول: هب أنكم أكثر منهم عددًا فماذا ينفع؟! والزيارة إتيان الموضع، وذلك يكون لأغراض كثيرة، وأهمها وأولاها بالرعاية ترقيق القلب وإزالة حب الدنيا، فإن مشاهدة القبور تورث ذلك، على ما قال عليه السلام: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَلاَ فَزُورُوهَا فَإِنَّ فِي زِيَارَتِهَا تَذْكِرَةً»[1] ثم إنكم زرتم القبور بسبب قساوة القلب والاستغراق في

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الجنائز) باب (استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه) (٢/ ٦٧٢/ ١٠٧)=

حب الدنيا فلما انعكست هذه القضية، لا جرم ذكر الله تعالى ذلك في معرض التعجيب.

والقول الثاني: أن المراد هو التكاثر بالمال: واستدلوا عليه بما روى مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه، أنه عليه السلام كان يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ وقال ابن آدم يقول: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، والمراد من قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي حتى متم، وزيارة القبر عبارة عن الموت، يقال لمن مات: زار قبره وزار رمسه، قال جرير للأخطل:

زَارَ الْقُبُورَ أَبُو مَالِكٍ فَأَصْبَحَ أَلْأَمَ زُوَّارِهَا[1]

أي مات فيكون معنى الآية: ألهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتاكم الموت، وأنتم على ذلك. يقال: حَمْله على هذا الوجه مشكل من وجهين: **الأول:** أن الزائر هو الذي يزور ساعة ثم ينصرف، والميت يبقى في قبره، فكيف يقال: إنه زار القبر؟ **والثاني:** أن قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ إخبار عن الماضي، فكيف يحمل على المستقبل؟ **والجواب عن السؤال الأول:** أنه قد يمكث الزائر، لكن لا بد له من الرحيل، وكذا أهل القبور يرحلون عنها إلى مكان الحساب.

والجواب عن السؤال الثاني من وجوه: أحدها: يحتمل أن يكون المراد من كان مشرفًا على الموت بسبب الكِبَر، ولذلك يقال فيه: إنه على شفير القبر. **وثانيها:** أن الخبر عمن تقدمهم وعظًا لهم، فهو كالخبر عنهم؛ لأنهم كانوا على طريقتهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٢١] **وثالثها:** قال أبو مسلم: إن الله تعالى يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعييرًا للكفار، وهم في ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور.

القول الثالث: ألهاكم الحرص على المال وطلب تكثيره حتى منعتم الحقوق المالية إلى حين الموت، ثم تقول في تلك الحالة: أوصيت لأجل الزكاة بكذا، ولأجل الحج بكذا.

القول الرابع: ألهاكم التكاثر فلا تلتفتون إلى الدين، بل قلوبكم كأنها أحجار لا تنكسر ألبتة إلا إذا زرتم المقابر، هكذا ينبغي أن تكون حالكم، وهو أن يكون حظكم من دينكم ذلك القدر القليل من الانكسار. ونظيره قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣] أي لا أقنع منكم بهذا القدر القليل من الشكر.

المسألة السادسة: أنه تعالى لم يقل: ألهاكم التكاثر عن كذا، وإنما لم يذكره لأن المطلق أبلغ في الذم لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله الموضع، أي: ألهاكم التكاثر عن ذكر الله وعن الواجبات والمندوبات في المعرفة والطاعة والتفكر والتدبر، أو نقول:

=وأبو داود في كتاب (الجنائز) باب (في زيارة النساء القبور) (٣/ ١٤٠٧) حديث رقم (٣٢٣٥) والنسائي في كتاب (الجنائز) باب (زيارة القبور) (٤/ ٣٩٤) حديث رقم (٢٠٣١) من طريق محارب بن دثار... به.

(١) تقدمت ترجمة جرير والأخطل.

إن نظرنا إلى ما قبل هذه الآية فالمعنى: ألهاكم التكاثر عن التدبر في أمر القارعة والاستعداد لها قبل الموت، وإن نظرنا إلى الأسفل فالمعنى ألهاكم التكاثر فنسيتم القبر حتى زرتموه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾

أما قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فهو يتصل بما قبله وبما بعده، أما الأول، فعلى وجه الرد والتكذيب، أي ليس الأمر كما يتوهمه هؤلاء من أن السعادة الحقيقية بكثرة العدد والأولاد. وأما اتصاله بما بعده، فعلى معنى القسم، أي حقًّا سوف تعلمون لكن حين يصير الفاسق تائبًا، والكافر مسلمًا، والحريص زاهدًا، ومنه قول الحسن: لا يغرنك كثرة من ترى حولك فإنك تموت وحدك، وتحاسب وحدك، وتقريره: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾ [عبس: ٣٤] و ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠] و ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ إلى أن قال: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] وهذا يمنعك عن التكاثر. وذكروا في التكرير وجوهًا: **أحدها:** أنه للتأكيد، وأنه وعيد بعد وعيد، كما تقول: للمنصوح: أقول لك، ثم أقول لك: لا تفعل. **وثانيها:** أن الأول عند الموت حيث يقال له: لا بشرى، والثاني في سؤال القبر: من ربك؟ والثالث عند النشور حين ينادي المنادي: فلان شقي شقاوة لا سعادة بعدها أبدًا. وحين يقال: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ﴾ [يس: ٥٩] **وثالثها:** عن الضحاك: سوف تعلمون أيها الكفار، ثم كلا سوف تعلمون أيها المؤمنون. وكان يقرؤها كذلك، فالأول وعيد والثاني وعد. **ورابعها:** أن كل أحد يعلم قبح الظلم والكذب وحسن العدل والصدق، لكن لا يعرف قدر آثارها ونتائجها، ثم إنه تعالى يقول: سوف تعلم العلم المفصل لكن التفصيل يحتمل الزائد فمهما حصلت زيادة لذة، ازداد علمًا، وكذا في جانب العقوبة فقسم ذلك على الأحواس، فعند المعاينة يزداد، ثم عند البعث، ثم عند الحساب، ثم عند دخول الجنة والنار، فلذلك وقع التكرير. **وخامسها:** أن إحدى الحالتين عذاب القبر والأخرى عذاب القيامة، كما روي عن أبي ذر أنه قال: كنت أشك في عذاب القبر، حتى سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: إن هذه الآية تدل على عذاب القبر. وإنما قال: ﴿ثُمَّ﴾ لأن بين العالمين والحياتين موتًا.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: اتفقوا على أن جواب (لو) محذوف، وأنه ليس قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جواب (لو) ويدل عليه وجهان: **أحدهما:** أن ما كان جواب (لو) فنفيه إثبات وإثباته نفي، فلو كان قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جوابًا للو لوجب أن لا تحصل هذه الرؤية، وذلك باطل، فإن هذه الرؤية واقعة قطعًا، فإن قيل: المراد من هذه الرؤية رؤيتها بالقلب في الدنيا، ثم إن هذه الرؤية غير واقعة قلنا: ترك الظاهر خلاف الأصل. **والثاني:** أن قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

[التكاثر: ٨]إخبار عن أمر سيقع قطعًا، فعطفه على ما لا يوجد ولا يقع قبيح في النظم، واعلم أن ترك الجواب في مثل هذا المكان أحسن، يقول الرجل للرجل: لو فعلت هذا أي لكان كذا، قال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٩]ولم يجئ له جواب وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]إذا عرفت هذا فنقول: ذكروا في جواب (لو) وجوهًا: أحدها: قال الأخفش: لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم التكاثر. وثانيها: قال أبو مسلم: لو علمتم ماذا يجب عليكم لتمسكتم به أو لو علمتم لأي أمر خُلقتم لاشتغلتم به. وثالثها: أنه حذف الجواب ليذهب الوهم كل مذهب فيكون التهويل أعظم، وكأنه قال: لو علمتم علم اليقين لفعلتم ما لا يوصف ولا يُكتنه، ولكنكم ضُلال وجهلة. وأما قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ فاللام يدل على أنه جواب قسم محذوف، والقسم لتوكيد الوعيد، وأن ما أوعدو به مما لا مدخل فيه للريب، وكرره معطوفًا بثم تغليظًا للتهديد وزيادة في التهويل.

المسألة الثانية: أنه تعالى أعاد لفظ كلا وهو للزجر، وإنما حسنت الإعادة لأنه عقبه في كل موضع بغير ما عقب به الموضع الآخر، كأنه تعالى قال: لا تفعلوا هذا فإنكم تستحقون به من العذاب كذا، لا تفعلوا هذا فإنكم تستوجبون به ضررًا آخر، وهذا التكرير ليس بالمكروه بل هو مرضي عندهم، وكان الحسن رحمه الله يجعل معنى ﴿كَلَّا﴾ في هذا الموضع بمعنى حقًّا، كأنه قيل: حقًّا لو تعلمون علم اليقين.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ وجهان: أحدهما: أن معناه علمًا يقينًا فأضيف الموصوف إلى الصفة، كقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩] وكما يقال: مسجد الجامع وعام الأول. والثاني: أن اليقين ههنا هو الموت والبعث والقيامة، وقد سمي الموت يقينًا في قوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] ولأنهما إذا وقعا جاء اليقين وزال الشك، فالمعنى لو تعلمون علم الموت وما يلقى الإنسان معه وبعده في القبر وفي الآخرة، لم يلهكم التكاثر والتفاخر عن ذكر الله، وقد يقول الإنسان: أنا أعلم علم كذا، أي أتحققه، وفلان يعلم علم الطب وعلم الحساب؛ لأن العلوم أنواع فيصلح لذلك أن يقال: علمت علم كذا.

المسألة الرابعة: العلم من أشد البواعث على العمل، فإذا كان وقت العمل أمامه كان وعدًا وعظة، وإن كان بعد وفاة وقت العمل فحينئذٍ يكون حسرة وندامة، كما ذكر أن ذا القرنين لما دخل الظلمات (وجد خرزا)، فالذين كانوا معه أخذوا من تلك الخرز، فلما خرجوا من الظلمات وجدوها جواهر، ثم الأخذون كانوا في الغم، أي لما لم يأخذوا أكثر مما أخذوا، والذين لم يأخذوا كانوا أيضًا في الغم، فهكذا يكون أحوال أهل القيامة.

المسألة الخامسة: في الآية تهديد عظيم للعلماء، فإنها دلت على أنه لو حصل اليقين بما في التكاثر والتفاخر من الآفة لتركوا التكاثر والتفاخر، وهذا يقتضي أن من لم يترك التكاثر والتفاخر لا يكون اليقين حاصلاً، له فالويل للعالم الذي لا يكون عاملاً ثم الويل له.

المسألة السادسة: في تكرار الرؤية وجوه: أحدها: أنه لتأكيد الوعيد أيضًا لعل القوم كانوا يكرهون سماع الوعيد فكرر لذلك، ونون للتأكيد تقتضي كون تلك الرؤية اضطرارية، يعني لو خليتم ورأيكم ما رأيتموها لكنكم تحملون على رؤيتها شئتم أم أبيتم. وثانيها: أن أولهما الرؤية من البعيد: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ [الفرقان: ١٢] وقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] والرؤية الثانية إذا صاروا إلى شفير النار. وثالثها: أن الرؤية الأولى عند الورود والثانية عند الدخول فيها. قيل: هذا التفسير ليس بحسن لأنه قال: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ﴾ [التكاثر: ٨] والسؤال يكون قبل الدخول. ورابعها: الرؤية الأولى للوعد والثانية المشاهدة. وخامسها: أن يكون المراد لترون الجحيم غير مرة، فيكون ذكر الرؤية مرتين عبارة عن تتابع الرؤية واتصالها لأنهم مخلدون في الجحيم، فكأنه قيل لهم على جهة الوعيد: لئن كنتم اليوم شاكين فيها غير مصدقين بها فسترونها رؤية دائمة متصلة، فتزول عنكم الشكوك. وهو كقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٣، ٤] بمعنى لو أعدت النظر فيها ما شئت لم تجد فطورًا. ولم يُرد مرتين فقط، فكذا ههنا، إن قيل: ما فائدة تخصيص الرؤية الثانية باليقين؟ قلنا: لأنهم في المرة الأولى رأوا لهبًا لا غير، وفي المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيوانات المؤذية، ولا شك أن هذه الرؤية أجلى، والحكمة في النقل من العلم الأخفى إلى الأجلى التفريع على ترك النظر؛ لأنهم كانوا يقتصرون على الظن ولا يطلبون الزيادة.

المسألة السابعة: قراءة العامة (لَتَرَوُنَّ) بفتح التاء، وقرئ بضمها من رأيته الشيء، والمعنى أنهم يُحشرون إليها فيرونها، وهذه القراءة تروى عن ابن عامر والكسائي، كأنهما أرادا لترونها فترونها، ولذلك قرأ الثانية: (ثُمَّ لَتَرَوُنَّها) بالفتح، وفي هذه الثانية دليل على أنهم إذا أروها رأوها وفي قراءة العامة الثانية تكرير للتأكيد ولسائر الفوائد التي عددناها، واعلم أن قراءة العامة أولى لوجهين: الأول: قال الفراء: قراءة العامة أشبه بكلام العرب لأنه تغليظ، فلا ينبغي أن الجحيم لفظه الثاني: قال أبو علي: المعنى في ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ لترون عذاب الجحيم، ألا ترى أن الجحيم يراها المؤمنون أيضًا بدلالة قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وإذا كان كذلك كان الوعيد في رؤية عذابها لا في رؤية نفسها، يدل على هذا قوله: ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقوله: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ [النحل: ٨٥] وهذا يدل على أن (لَتَرون) أرجح من (لَتُرون).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾

فيه قولان:

المسألة الأولى: في أن الذي يُسأل عن النعيم من هو؟ فيه قولان:

أحدهما: -وهو الأظهر- أنهم الكفار، قال الحسن: لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار. ويدل عليه وجهان: الأول: ما روي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية، قال: يا رسول الله، أرأيت أكلة

أكلتها معك في بيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر وماء عذب أن تكون من النعيم الذي نُسأل عنه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنما ذلك للكفار**»، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧][١] **والثاني**: وهو أن ظاهر الآية يدل على ما ذكرناه، وذلك لأن الكفار ألهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله تعالى والاشتغال بشكره، فالله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة حتى يظهر لهم أن الذي ظنوه سببًا لسعادتهم هو كان من أعظم أسباب الشقاء لهم في الآخرة.

والقول الثاني: أنه عام في حق المؤمن والكافر. واحتجوا بأحاديث، روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ النَّعِيمِ فَيُقَالُ لَهُ: أَلَمْ نُصَحِّحْ لَكَ جِسْمَكَ وَنَرْوِكَ من الماء الْبَارِدِ؟**»[٢] وقال محمود بن لبيد: لما نزلت هذه السورة قالوا: يا رسول الله عن أي نعيم نُسأل؟ إنما هما الماء والتمر وسيوفنا على عواتقنا والعدو حاضر، فعن أي نعيم نُسأل؟ قال: «**إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ**»[٣] وروي عن عمر أنه قال: أي نعيم نُسأل عنه يا رسول الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأموالنا؟ فقال ﷺ: «**ظلال المساكن والأشجار والأخبية التي تقيكم من الحر والبرد والماء البارد في اليوم الحار**» وقريب منه: «**مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ وَعِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا**»[٤] وروي أن شابًا أسلم في عهد رسول الله ﷺ فعلَّمه رسول الله سورة (ألهاكم) ثم زوَّجه رسول الله امرأة فلما دخل عليها ورأى الجهاز العظيم والنعيم الكثير خرج وقال: لا أريد ذلك. فسأله النبي عليه الصلاة والسلام عنه فقال: ألست

(١) لم أجده إلا عند أهل التفسير بدون إسناد.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤٤٨) حديث رقم (٣٣٥٨) وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب. والضحاك هو ابن عبد الرحمن بن عزرت ويقال ابن عرزم وابن عزرم أصح، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ١٥٣) حديث رقم (٧٢٠٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والطبري في (تفسيره) (٢٤/ ٥٨٥) جميعًا من طريق شبابة بن سوار قال: حدثني عبد الله بن العلاء أبو زرين الشامي قال: حدثنا الضحاك بن عزرم قال: سمعت أبا هريرة... فذكره.

(٣) حسن: أخرجه الترمذي في (سننه) (٧/ ٣٥٦) حديث رقم (٣٣٥٦) وأيضًا في (٥/ ٤٤٨) حديث رقم (٣٣٥٧) من طريق أبي بكر بن عياش عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة... به، وقال أبو عيسى: وحديث ابن عيينة عن محمد بن عمرو أصح من هذا، سفيان بن عيينة أحفظ وأصح حديثا من أبي بكر بن عياش. اهـ. من طريق سفيان بن عيينة عن محمد بن عمرو بن علقمة عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن عبد الله بن الزبير بن العوام عن أبيه... به وقال: هذا حديث حسن، والطبري في (تفسيره) (٢٤/ ٥٨٥) من طريق محمد بن عمرو عن صفوان بن سليم عن محمد بن محمود بن لبيد... به والثعلبي في (الكشف والبيان) (١٤/ ٢٠٢) من طريق محمد بن عمر عن صفوان بن سليم عن محمود بن لبيد... به.

(٤) حسن: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٥٧٤) حديث رقم (٢٣٤٦) وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية، وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٣٨٧) حديث رقم (٤١٤١) والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ١١٢) حديث رقم (٣٠٠) والحميدي في (مسنده) (١/ ٢٠٨) حديث رقم (٤٣٩) جميعًا من طريق سلمة بن عبيد الله بن محصن عن أبيه... به.

علمتني: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (١) وأنا لا أطيق الجواب عن ذلك. وعن أنس لما نزلت الآية قام محتاج فقال: هل عليَّ من النعمة شيء؟ قال: الظل والنعلان والماء البارد.. وأشهر الأخبار في هذا ما روي أنه عليه الصلاة والسلام خرج ذات ليلة إلى المسجد، فلم يلبث أن جاء أبو بكر فقال: «ما أخرجك يا أبا بكر؟» قال: الجوع. قال: «والله ما أخرجني إلا الذي أخرجك» ثم دخل عمر فقال مثل ذلك، فقال: «قوموا بنا إلى منزل أبي الهيثم» فدق رسول الله ﷺ الباب وسلَّم ثلاث مرات فلم يجب أحد فانصرف رسول الله ﷺ فخرجت امرأته تصيح: كنا نسمع صوتك لكن أردنا أن تزيد من سلامك. فقال لها خيرًا، ثم قالت: بأبي أنت وأمي إن أبا الهيثم خرج يستعذب لنا الماء ثم عمدت إلى صاع من شعير فطحنته وخبزته ورجع أبو الهيثم فذبح عناقًا وأتاهم بالرطب فأكلوا وشربوا فقال عليه الصلاة والسلام: «هَذَا مِنَ النَّعِيم الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ» (٢) وروى أيضًا: «لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَع: عَنْ عُمُرِهِ وَمَالِهِ وَشَبَابِهِ وَعَمَلِهِ» (٣) وعن معاذ عن النبي ﷺ: «أَنَّ الْعَبْدَ لَيُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ، وَعَنْ فُتَاتِ الطِّينَةِ بِأُصْبُعِهِ وَعَنْ لَمْسِ ثَوْبِ أَخِيهِ» (٤).

واعلم أن الأوْلى أن يقال: السؤال يعم المؤمن والكافر، لكن سؤال الكافر توبيخ لأنه ترك

---

(١) لم أجده.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) (١٢/ ٤٤٨) قال: حدثنا أبو زرعة حدثنا زكريا بن يحيى الخزاز المقري قال: حدثنا عبد الله بن عيسى... به، وقال ابن كثير في (تفسيره) (٤/ ٥٤٦) بعد أن عزاه إلى ابن أبي حاتم: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وأخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢٣/ ٣٢٤) حديث رقم (٥٢٥٢) من طريق هلال بن بشير قال: حدثنا أبو خلف عبد الله بن عيسي... به والضياء في (المختاره) (١/ ٢٨٩) حديث رقم (١٧٩) من طريق زكريا بن يحيي الخزاز قال حدثنا عبد الله بن عيسى... به والضياء في المختار (١/ ٢٨٩) حديث رقم (١٧٩) من طريق زكريا بن يحيى الخزاز قال: حدثنا عبد الله بن عيسى... به، وقال: لهذا الحديث شاهد في الصحيح من حديث أبي حازم عن أبي هريرة. اهـ، وأبو يعلى في (مسنده) (١/ ٢١٤) حديث رقم (٢٥٠) من طريق عبد الله بن عيسى... به ولم يذكر فيه عن ابن عباس أنه قال: سمع عمر... فذكره، والطبراني في (الكبير) (١٩/ ٢٥٣) حديث رقم (٥٦٨) من طريق عبد الله بن عيسى... به والبزار في (مسنده) (١) حديث رقم (٢٠٥) من طريق عبد الله بن عيسى... به ورواه العقيلي في (الضعفاء) (٢/ ٢٨٦) حديث رقم (٨٥٦) وأورده الهيثمي في (المجمع) (١٠/ ٣١٧) في ترجمة عبد الله بن عيسى وقال لا يتابع على أكثر حديثه وقال: رواه البزار وأبو يعلى باختصار بقية الكلام، والطبراني كذلك وفي أسانيدهم كلها عبد الله بن عيسى أبو خلف وهو ضعيف، وقال أبو يعلى والطبراني: أم الهيثم. وقال البزار: أم أبي الهيثم. اهـ.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (صفة القيامة) باب (في القيامة) (٤/ ٦١٢) حديث رقم (٢٤١٧) من طريق الأعمش عن سعيد بن عبد الله بن جريج عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأبو برزة الأسلمي اسمه فضلة بن عبيد رضي الله عنه، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٩٤٦).

(٤) إسناده ضعيف: ابن أبي حاتم في (تفسيره) (٩/ ٧٣) حديث رقم (١٣٣٠٥) من طريق يونس الحذاء عن أبي حمزة الشيباني عن معاذ بن جبل... به، وأورده ابن كثير في (تفسيره) (٤/ ٥٥١) وقال: حديث غريب جدًا، في إسناده نظر وفي صحته.

الشكر، وسؤال المؤمن سؤال تشريف لأنه شكر وأطاع.

المسألة الثانية: ذكروا في النعيم المسئول عنه وجوهًا: **أحدها:** ما روي أنه خمس: شبع البطون وبارد الشراب ولذة النوم وإظلال المساكن واعتدال الخلق. **وثانيها:** قال ابن مسعود: إنه الأمن والصحة والفراغ. **وثالثها:** قال ابن عباس: إنه الصحة وسائر ملاذ المأكول والمشروب. **ورابعها:** قال بعضهم: الانتفاع بإدراك السمع والبصر. **وخامسها:** قال الحسن بن الفضل: تخفيف الشرائع وتيسير القرآن. **وسادسها:** قال ابن عمر: إنه الماء البارد. **وسابعها:** قال الباقر: إنه العافية، ويروى أيضًا عن جابر الجعفي قال: دخلت على الباقر فقال: ما تقول أرباب التأويل في قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾؟ فقلت: يقولون: الظل والماء البارد. فقال: لو أنك أدخلت بيتك أحدًا وأقعدته في ظل وأسقيته ماء باردًا أتمن عليه؟ فقلت: لا، قال: فالله أكرم من أن يطعم عبده ويسقيه ثم يسأله عنه. فقلت: ما تأويله؟ قال: النعيم هو رسول الله ﷺ أنعم الله به على هذا العالم فاستنقذهم به من الضلالة، أما سمعت قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية. **القول الثامن:** إنما يُسألون عن الزائد مما لا بد منه من مطعم وملبس ومسكن. **والتاسع وهو الأولى:** أنه يجب حمله على جميع النعم، ويدل عليه وجوه: **أحدها:** أن الألف واللام يفيدان الاستغراق. **وثانيها:** أنه ليس صرف اللفظ إلى البعض أولى من صرفه إلى الباقي، لاسيما وقد دل الدليل على أن المطلوب من منافع هذه الدنيا اشتغال العبد بعبودية الله تعالى. **وثالثها:** أنه تعالى قال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] والمراد منه جميع النعم من فلق البحر والإنجاء من فرعون وإنزال المن والسلوى، فكذا ههنا. **ورابعها:** أن النعيم التام كالشيء الواحد الذي له أبعاض وأعضاء، فإذا أشير إلى النعيم فقد دخل فيه الكل، كما أن الترياق اسم للمعجون المركب من الأدوية الكثيرة، فإذا ذُكر الترياق فقد دخل الكل فيه.

واعلم أن النعم أقسام، فمنها ظاهرة وباطنة، ومنها متصلة ومنفصلة، ومنها دينية ودنيوية، وقد ذكرنا أقسام السعادات بحسب الجنس في تفسير أول هذه السورة، وأما تعديدها بحسب النوع والشخص فغير ممكن، على ما قاله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] واستعن في معرفة نعم الله عليك في صحة بدنك بالأطباء، ثم هم أشد الخلق غفلة، وفي معرفة نعم الله عليك بخلق السموات والكواكب بالمنجمين، وهم أشد الناس جهلاً بالصانع، وفي معرفة سلطان الله بالملوك، ثم هم أجهل الخلق، وأما الذي يروى عن ابن عمر أنه الماء البارد فمعناه هذا من جملته، ولعله إنما خصه بالذكر لأنه أهون موجود وأعز مفقود، ومنه قول ابن السماك للرشيد: أرأيت لو احتجت إلى شربة ماء في فلاة، أكنت تبذل فيه نصف الملك؟ فلا تغتر بملك كانت الشربة الواحدة من الماء قيمته مرتين؛ أو لأن أهل النار يطلبون الماء أشد من طلبهم لغيره، قال تعالى: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] أو لأن السورة نزلت في المترفين، وهم المختصون بالماء البارد والظل، والحق أن السؤال يعم المؤمن والكافر عن

جميع النعيم، سواء كان مما لا بد منه (أو لاً)، وليس كذلك لأن كل ذلك يجب أن يكون مصروفًا إلى طاعة الله لا إلى معصيته، فيكون السؤال واقعًا عن الكل، ويؤكده ما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لاَ تَزُولُ قَدَمَا الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ» فكل النعيم من الله تعالى داخل فيما ذكره عليه الصلاة والسلام.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن هذا السؤال أين يكون:

فالقول الأول: أن هذا السؤال إنما يكون في موقف الحساب، **فإن قيل**: هذا لا يستقيم لأنه تعالى أخبر أن هذا السؤال متأخر عن مشاهدة جهنم بقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ وموقف السؤال متقدم على مشاهدة جهنم؟ **قلنا**: المراد من قوله: ﴿ثُمَّ﴾ أي ثم أخبركم أنكم تسألون يوم القيامة، وهو كقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٣ - ١٧].

القول الثاني: أنهم إذا دخلوا النار سئلوا عن النعيم توبيخًا لهم، كما قال: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [الملك: ٨] وقال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] ولا شك أن مجيء الرسول نعمة من الله، فقد سئلوا عنه بعد دخولهم النار، أو يقال: إنهم إذا صاروا في الجحيم وشاهدوها، يقال لهم: إنما حل بكم هذا العذاب لأنكم في دار الدنيا اشتغلتم بالنعيم عن العمل الذي ينجيكم من هذه النار، ولو صرفتم عمركم إلى طاعة ربكم لكنتم اليوم من أهل النجاة الفائزين بالدرجات، فيكون ذلك من الملائكة سؤالاً عن نعيمهم في الدنيا.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير سورة «التكاثر»

وهي مكيةٌ في قولِ جميعِ المفسِّرين[١]، ورَوَى البخارِيُّ أنَّها مدنية[٢]. وهي ثماني آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾

فيه خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ «ألهاكم»: شَغَلَكم؛ قال:

فَأَلْهَيْتُها عن ذي تَمائم مُغْيِلِ[٣]

أي: شَغَلكم المباهاةُ بكثرة المالِ والعددِ عن طاعة الله، حتى مِتُّم ودُفنتُم في المقابر. وقيل: «أَلْهاكُمْ»: أنساكم، «التكاثُرُ» أي: من الأموال والأولاد؛ قاله ابن عباس والحسن[٤].

وقال قتادة: أي: التفاخرُ بالقبائل والعشائر. وقال الضحاك: أي: ألهاكم التشاغلُ بالمعاش والتجارة[٥].

---

(١) الوسيط ٤/٥٤٨، والمحرر الوجيز ٥/٥١٨، والكشاف ٤/ ٢٨٠، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠، وتفسير الرازي ٣٢/ ٧٥.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٢، ويشير ابن العربي إلى حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ: «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب...» فذكر أنس عن أبيٍّ قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ألهاكم التكاثر. صحيح البخاري (٦٤٣٩) و(٦٤٤٠)، وسيأتي قريباً.

(٣) وصدره: فمثلك حبلى قد طرقت ومرضعاً، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ١٢، وسلف عند تفسير الآية (٨٤) من سورة صٓ، و ص٢٠٢ من هذا الجزء.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣٠ عن الحسن، وأخرجه عن ابن عباس ابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٧.

(٥) ذكر القولين الماوردي ٦/ ٣٣٠، وقول قتادة أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٣، والطبري ٢٤/ ٥٩٨.

يقال: لَهِيتُ عن كذا ـ بالكسر ـ أَلْهَى لُهِيًّا ولِهْيَانًا: إذا سَلَوْت عنه، وتركت ذِكْرَه، وأَضْربت عنه. وأَلْهاه: أي شَغَله. ولهَّاه به تلهيةً، أي: عَلَّله[١]. والتكاثر: المُكاثَرة. قال مقاتل وقتادةُ وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثرُ من بني فلان، وبنو فلانٍ أكثرُ من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلَّالا[٢].

وقال ابن زيد: نزلت في فخذٍ من الأنصار.

وقال ابن عباس ومقاتلٌ والكلبيُّ: نزلت في حَيَّيْن من قريش: بني عبد مَناف، وبني سَهْم، تعادُّوا وتَكاثَروا بالسادة والأشراف في الإسلام، فقال كلُّ حيٍّ منهم: نحن أكثرُ سيداً، وأعزُّ عزيزاً، وأَعْظَمُ نَفَراً، وأكثرُ عائذًا، فَكَثَرَ بنو عبد منافٍ سهماً. ثم تكاثروا بالأموات، فَكَثَرَتْهُمْ سَهْم، فنزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٣] بأحيائكم، فلم ترضَوا ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ مفتخِرينَ بالأموات.

وروى سعيد عن قتادة قال: كانوا يقولون: نحن أكثرُ من بني فلان، ونحن أعدُّ من بني فلان، وهم كلَّ يومٍ[٤] يتساقطون إلى آخرهم، واللهِ ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كُلُّهم.

وعن عمرو بن دينار: حلف أنَّ هذه السورةَ نزلت في التجار. وعن شيبان عن قتادةَ قال: نزلتْ في أهل الكتاب.

قلت: الآيةُ تَعُمُّ جميعَ ما ذُكر وغيره. وفي «صحيح» مسلم عن مُطَرِّف عن أبيه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «يقولُ ابنُ آدمَ: مالي مالي!

---

(١) الصحاح (لها).

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٤٩٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠ عن قتادة.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٤٩٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠ عن مقاتل والكلبي. وذكره الماوردي ٦/ ٣٣١ عن الكلبي وقتادة.

(٤) في النسخ الخطية: قوم، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في كتاب الورع لأحمد ص ١٨٩ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٩٨ .

وهل لكَ يا ابنَ آدمَ مِن مالكَ إلَّا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لَبِسْتَ فأَبْلَيْتَ، أو تَصدَّقْتَ فأَمْضَيْتَ»[١]، «وما سوى ذلك فذاهبٌ وتارِكُه للناس»[٢].

وروى البخاريُّ عن ابن شهاب: أخبرني أنس بنُ مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لو أنَّ لابنِ آدمَ وادياً من ذهب، أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يَمْلَأ فاه إلَّا الترابُ، ويتوبُ اللهُ على مَن تابَ»[٣]. قال ثابت عن أنس عن أبيٍّ: كنَّا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٤]. قال ابن العربيّ: وهذا نصٌّ صحيحٌ مَليحٌ، غاب من أهل التفسير فجهِلوا وجَهَّلوا، والحمدُ لله على المعرفة[٥].

وقال ابن عباس: قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «تَكاثُرُ الأموالِ: جَمْعُها من غير حقِّها، ومَنْعُها من حقِّها، وشدُّها في الأوعية»[٦].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي: حتى أتاكم الموتُ فصِرْتُم في المقابر زُوَّاراً، ترجعون منها كرجوع الزائرِ إلى منزله من جنةٍ أو نار. يقال لمن مات: قد زار قبرَه.

وقيل: أي: ألهاكم التكاثرُ حتى عَدَدتُم الأموات، على ما تقدَّم.

وقيل: هذا وعيدٌ، أي: اشتغلتُم بمفاخرة الدنيا، حتى تزوروا القبور، فترَوْا ما

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٥٨)، وهو عند أحمد (١٦٣٠٦). قوله: فأمضيت، أي: أنفذت فيه عطاءك، ولم تتوقف فيه. النهاية (مضا). ووقع في (ظ): فأبقيت، بدل: فأمضيت، وهي رواية في الحديث. ينظر الورع لأحمد ص ١٨٨، والدر المنثور ٦/ ٣٨٦ - ٣٨٧.

(٢) قوله: وما سوى ذلك...، ورد في آخِر حديثِ أبي هريرة عند مسلم (٢٩٥٩)، وأوله نحوُ حديث مطرف عن أبيه.

(٣) صحيح البخاري (٦٤٣٩)، وهو عند أحمد (١٢٧١٧)، ومسلم (١٠٤٨).

(٤) صحيح البخاري (٦٤٤٠).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٢، وإنما عقب ابن العربي بهذا الكلام على الحديث للرد على المفسرين الذين قالوا إن هذه السورة مكية، وينظر ما سلف في بداية تفسير هذه السورة.

(٦) لم نقف عليه.

ينزل بكم من عذاب الله عزّ وجلّ.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾ جمع مَقْبَرة ومَقْبُرة، بفتْحِ الباءِ وضمِّها. والقبور: جمع القبر[1]؛ قال:

أَرَى أَهْلَ القُصُور إذا أُمِيتُوا بَنَوْا فوق المقابرِ بالصُّخورِ

أَبَوْا إلَّا مُباهاةً وفَخْرًا على الفقراءِ حتّى في القُبورِ[2]

وقد جاء في الشعر: المَقْبَر؛ قال:

لكلِّ أناسٍ مَقْبَرٌ بِفنائهم فَهُمْ يَنقُصُونَ والقُبورُ تَزِيدُ[3]

وهو المَقْبُريُّ والمقْبَريُّ: لأبي سعيد المقبريِّ؛ وكان يسكنُ المقابر[4]. وقَبَرْتُ المَيتَ أَقْبِرهُ وأَقبُرُه[5] قَبْرًا، أي: دفنته. وأَقْبَرتُه، أي: أمرتُ بأن يُقْبَر. وقد مضى في سورة «عَبَس» القولُ فيه[6]. والحمد لله.

الرابعة: لم يأتِ في التنزيل ذِكْرُ المقابرِ إلّا في هذه السورة. وزيارتُها مِن أعظمِ الدواءِ للقلب القاسي؛ لأنّها تذكِّر الموتَ والآخرة. وذلك يَحمل على قِصَر الأمل، والزهدِ في الدنيا، وتَرْكِ الرغبة فيها. قال النبيُّ ﷺ: «كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور، فزوروا القبورَ، فإنَّها تزهِّد في الدنيا، وتذكِّر الآخرة» رواه ابن مسعود، أخرجه ابن ماجه[7]. وفي «صحيح» مسلم من حديث أبي هريرة: «فإنَّها تذكِّر الموتَ»[8].

---

(١) الصحاح (قبر).

(٢) البيتان ليحيى بن الحكم البكري الجياني، كما في نفح الطيب ٢/ ٢٥٦ .

(٣) البيت لعبد الله بن ثعلبة الحنفي، كما في الصحاح (قبر) ـ والكلام منه ـ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٨٩١ .

(٤) واسمه كيسان، وهو مولى أم شريك، ذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من أهل المدينة؛ وقال: توفي في خلافة الوليد بن عبد الملك. التهذيب ٣/ ٤٧٨ .

(٥) وبابه ضرب ونصر. مختار الصحاح (قبر)، والكلام من الصحاح (قبر).

(٦) ص٨٠-٨١ من هذا الجزء.

(٧) في سننه (١٥٧١)، وأخرجه بنحوه أحمد (٤٣١٩).

(٨) صحيح مسلم (٩٧٦)، وهو عند أحمد (٩٦٨٨).

وفي الترمذيِّ عن بُرَيْدة: «فإنَّها تذكِّر الآخرة». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح(١).

وفيه عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ لعن زوَّاراتِ القبور. قال: وفي الباب عن ابن عباسٍ وحسان بنِ ثابت. قال أبو عيسى: وهذا حديثٌ حسنٌ صحيح. وقد رأى بعضُ أهلِ العلم أنَّ هذا كان قبل أن يرخِّص النبيُّ ﷺ في زيارة القبور، فلمَّا رَخَّص دخل في رخصته الرجالُ والنساء. وقال بعضهم: إنَّما كره زيارةَ القبورِ للنساء لقلةِ صَبْرِهنَّ، وكَثْرةِ جَزَعِهِنّ(٢).

قلت: زيارةُ القبورِ للرجال متَّفقٌ عليه عند العلماء، مختلفٌ فيه للنساء. أمَّا الشَّوَابُّ فحرامٌ عليهنَّ الخروج، وأمَّا القواعدُ فمباحٌ لهنَّ ذلك. وجائزٌ لجميعهنَّ ذلك إذا انفَرَدْنَ بالخروج عن الرجال، ولا يُختلف في هذا إن شاء الله. وعلى هذا المعنى يكون قولُه: «زوروا القبورَ» عامًّا. وأمَّا مَوْضعٌ أو وقتٌ يُخْشَى فيه الفتنةُ من اجتماع الرجالِ والنساء، فلا يَحِلُّ ولا يجوز. فبينما الرجل يخرجُ ليعتبر، فيقع بصره على امرأةٍ فيفتتن، وبالعكس، فيرجع كلُّ واحدٍ من الرجال والنساء مأزوراً غيرَ مأجورٍ. والله أعلم.

الخامسة: قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاجَ قلبِه وانقيادَه بسلاسل القهر إلى طاعة ربِّه، أن يُكْثِرَ مِن ذِكرِ هاذِمِ(٣) اللذَّات، ومفرِّقِ الجماعات، ومُوتمِ البنينَ والبنات، ويواظبَ على مشاهدةِ المحتَضَرِين، وزيارةِ قبورِ أمواتِ المسلمين. فهذه ثلاثةُ أمورٍ ينبغي لمن قسا قلبُه، ولزمه ذَنْبُه، أن يستعين بها على دواءِ دائه، ويستصرخَ بها على فتن الشيطانِ وأعوانه(٤)، فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانْجَلَتْ به قساوةُ قلبِه، فذاك، وإنْ عَظُمَ عليه رانُ القلبِ، واستحكمتْ فيه دواعي الذنب؛ فإنَّ

---

(١) سنن الترمذي (١٠٥٤)، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٢٩٥٨)، ومسلم (٩٧٧).

(٢) سنن الترمذي (١٠٥٦)، والحديث عند أحمد (٨٤٤٩).

(٣) في (د) و(ظ): هادم. قال المناوي في فيض القدير ٢/ ٨٦ : هاذم بالذال المعجمة: قاطع، وبالمهملة: مزيل.

(٤) في (ظ): وإغوائه.

مشاهدة المحتَضَرين، وزيارةَ قبورِ أمواتِ المسلمين، تَبلُغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأنَّ ذِكْر الموت إخبارٌ للقلب بما إليه المصير، وقائمٌ له مقامَ التخويفِ والتحذير. وفي مشاهدةِ مَن احتُضِر، وزيارةِ قبرِ مَن مات مِن المسلمين مُعايَنَةٌ ومشاهَدةٌ؛ فلذلك كان أبلغَ من الأوّل؛ قال ﷺ: «ليس الخبرُ كالمُعايَنَةِ». رواه ابن عباس[1]. فأمَّا الاعتبارُ بحالِ المحتَضَرين فغيرُ مُمْكِنٍ في كلِّ الأوقات، وقد لا يتَّفقُ لمن أراد علاجَ قلبه في ساعة من الساعات. وأمَّا زيارةُ القبورِ فوجودُها أسرعُ، والانتفاعُ بها أَلْيَقُ وأَجْدَر. فينبغي لمن عزم على الزيارة أن يتأدَّب بآدابها، ويُحضِرَ قلبَه في إتيانها، ولا يكون حظُّه منها التَّطْوافَ على الأجداث فقط؛ فإنَّ هذه حالةٌ تشاركُه فيها بهيمةٌ، ونعوذ بالله من ذلك. بل يقصدُ بزيارته وجهَ اللهِ تعالى، وإصلاحَ فسادِ قلبِه، أو نَفْعَ الميتِ بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنَّب المشيَ على المقابر والجلوسَ عليها، ويُسلِّم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر ميتِه الذي يعرفه سلَّم عليه أيضًا، وأتاه مِن تِلْقاءِ وَجْهِه؛ لأنَّه في زيارته كمخاطبته حيًّا، ولو خاطبه حيًّا لكان الأدبُ استقبالَه بوجهه، فكذلك هاهنا. ثم يعتبر بمَن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوشَ والعساكر، ونافَسَ الأصحابَ والعشائر، وجَمَعَ الأموالَ والذخائر؛ فجاءه الموتُ في وقتٍ لم يَحْتَسِبْه، وهولٍ لم يَرتَقِبْه. فليتأمَّل الزائرُ حالَ مَن مضى من إخوانه، ودَرَج من أقرانه الذين بلَغوا الآمال، وجَمَعوا الأموال، كيف انقطعت آمالُهم، ولم تُغْنِ عنهم أموالُهم، ومحا الترابُ محاسنَ وجوهِهم، وافترقَتْ في القبور أجزاؤُهم، وتَرَمَّلَ مِن بَعْدِهم نساؤُهم، وشَمِلَ ذلُّ اليُتْم أولادَهم، واقتَسم غيرُهم طريفَهم وتِلادهم[2]. وليتذكَّر تردُّدَهم في المآرِب، وحرصَهم على نَيْلِ المطالب، وانْخِداعَهم لمواتاةِ الأسباب، وركونَهم إلى الصِّحة

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٢) و(٢٤٤٧)، وسلف ٤/ ٣٠٩ .

(٢) في (ي): طريقهم وتلادهم، وفي (د): طريقهم وبلادهم. والطريف: هو الحديث من المال، وهو خلاف التالد والتليد، ويقولون: ما لَه طريف ولا تليد، فالطريف ما استحدَثْتَ من المال، والتليد ما ورثْته من الآباء. تاج العروس (طرف).

والشباب. ولْيَعْلَم أنَّ ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغَفْلَتَه عمَّا بين يديه من الموت الفظيع، والهلاكِ السريع، كغَفْلَتِهم، وأنه لا بدَّ صائرٌ إلى مصيرهم، ولْيُحضِر بقلبه ذِكْرَ مَن كان متردِّداً في أغراضه، وكيف تهدَّمت رجلاه. وكان يتلذَّذُ بالنظر إلى ما خُوِّلَه، وقد سالت عيناه. ويصولُ ببلاغة نُطْقِه، وقد أكَلَ الدودُ لسانَه. ويضحكُ لمواتاةِ دَهْرِه، وقد أبْلَى الترابُ أسنانَه. ولْيتحقَّقْ أنَّ حالَه كحاله، ومآلَه كمآلِه. وعند هذا التذكُّرِ والاعتبارِ تزولُ عنه جميعُ الأغيارِ الدنيوية، ويُقْبِلُ على الأعمال الأخروية، فيزهدُ في دنياه، ويُقبل على طاعةِ مولاه، ويَلينُ قلبُه، وتَخْشَعُ جوارِحُه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الفرَّاء: أي: ليس الأمرُ على ما أنتم عليه من التفاخُرِ والتكاثُر(١)، والتمامُ على هذا.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: سوف تعلمون عاقبةَ هذا. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعِيدٌ بعدَ وعيد؛ قاله مجاهد(٢). ويحتملُ أن يكون تكرارُه على وجه التأكيد والتغليظ؛ وهو قولُ الفرَّاء(٣).

وقال ابن عباس: «كلَّا سوف تعلمون» ما ينزلُ بكم من العذاب في القبر، «ثم كلَّا سوف تعلمون» في الآخرة إذا حلَّ بكم العذاب(٤). فالأوّل في القبر، والثاني في الآخرة؛ فالتكرارُ للحالتين.

وقيل: «كلَّا سوف تعلمون» عند المعاينة، أنَّ ما دعوتُكم إليه حقٌّ. «ثم كلا سوف تعلمون»: عند البعث، أنَّ ما وعدتُكم به صدق(٥).

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٧ دون قوله: من التفاخر...

(٢) الوسيط ٤/ ٥٤٩، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠ عن الحسن ومقاتل.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٧.

(٤) ذكره المصنف في كتاب التذكرة له ص ١٣٣، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز بنحوه ٥/ ٥١٩ عن علي ﷺ.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٣١.

وروى زِرّ بنُ حُبَيْشٍ عن عليٍّ ﷺ، قال: كنَّا نَشُكُّ في عذاب القبر، حتى نزلت هذه السورة[١]. فأشار إلى أنَّ قوله: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» يعني في القبور.

وقيل: «كلَّا سوف تعلمون»: إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رُسُلٌ لِتَنْزِع أرواحكم ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: إذا دخلتُم قبورَكم، وجاءكم مُنْكَر ونَكِير، وحاط بكم هولُ السؤال، وانقطع منكم الجواب.

قلت: فتضمَّنت السورةُ القولَ في عذاب القبر. وقد ذَكَرنا في كتاب «التذكرة» أنَّ الإيمانَ به واجبٌ، والتصديقَ به لازمٌ، حَسْبَما أخبرَ به الصادق، وأنَّ الله تعالى يُحيي العبدَ المكلَّفَ في قبره بردِّ الحياة إليه، ويجعلُ له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه؛ ليَعْقِلَ ما يُسأَلُ عنه، وما يجيبُ به، ويفهمَ ما أتاه من ربِّه، وما أُعدَّ له في قبره من كرامةٍ وهوانٍ. وهذا هو مذهبُ أهلِ السُّنةِ، والذي عليه الجماعةُ من أهل الملَّة. وقد ذكرناه هناك مستوفًى[٢]، والحمد لله.

وقيل: «كَلَّا سوف تعلمون» عند النشورِ أنَّكم مبعوثون، «ثم كلا سوف تعلمون» في القيامة أنَّكم معذَّبون[٣]. وعلى هذا تضمَّنتْ أحوالَ القيامةِ من بعثٍ وحَشْرٍ، وسؤالٍ وعَرْضٍ، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها، حَسْبَ ما ذكرناه في «كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمورِ الآخرة».

وقال الضحَّاك: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُون» يعني الكفار، «ثم كَلَّا سوف يعلمون» قال: المؤمنون. وكذلك كان يقرؤها؛ الأولى بالتاء والثانية بالياء[٤].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أعاد «كَلَّا» وهو زجرٌ وتنبيه؛ لأنه عَقَّب

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٥٥)، والطبري ٢٤/ ٦٠٠ . قال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٢) التذكرة ص ١٢٤ وما بعدها.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٣١ .

(٤) في (ظ): الأولى بالياء والثانية بالتاء، والمثبت من باقي النسخ وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠ ، والكلام منه، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٠١ دون قوله: الأولى بالتاء...

كلَّ واحدٍ بشيء آخر، كأنه قال: لا تفعلوا فإنَّكم تندمون، لا تفعلوا فإنَّكم تستوجبون العقاب. وإضافةُ العلمِ إلى اليقين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

وقيل: اليقينُ هاهنا: الموت؛ قاله قتادة(١). وعنه أيضاً: البعث(٢)؛ لأنه إذا جاء زال الشكُّ، أي: لو تعلمون عِلْمَ البعث. وجوابُ «لو» محذوفٌ، أي: لو تعلمون اليومَ من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخةُ الصور، وانشقَّت اللُّحودُ عن جُثَثكم، كيف يكون حَشْركم؟ لشغلَكُم ذلك عن التكاثر بالدنيا.

وقيل: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلمَ اليَقِينِ» أي: لو قد تطايرتِ الصحف، فشقيٌّ وسعيدٌ.

وقيل: إنَّ «كَلَّا» في هذه المواضع الثلاثة بمعنى «أَلَا»؛ قاله أبو حاتم(٣). وقال الفرَّاء: هي بمعنى «حَقًّا»(٤). وقد تقدَّم الكلامُ فيها مستوفًى(٥).

قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ هذا وعيدٌ آخَرُ. وهو على إضمارِ القسم، أي: لترونَّ الجحيم في الآخرة. والخطابُ للكفار الذين وَجَبَتْ لهم النار. وقيل: هو عامٌّ، كما قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فهي للكفار دارٌ، وللمؤمنين ممرٌّ. وفي الصحيح: «فيمرُّ أوَّلُهم كالبرق، ثم كالريح، ثم كالطير...» الحديثَ. وقد مضى في سورة مريم(٦).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٣.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٠٢.

(٣) في النسخ: قاله ابن أبي حاتم، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٣١، والكلام منه. وكذا ذكره السيوطي في الإتقان ١/ ٥٣٨ عن أبي حاتم وقال: قال أبو حيان: لم يسبقه إلى ذلك أحد، وتابعه جماعة منهم الزجاج.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣١.

(٥) ١٣/ ٥١٠.

(٦) ١٣/ ٤٩٤، وهو في صحيح البخاري (٧٤٣٩)، وصحيح مسلم (١٨٣)، وأخرجه أحمد (١١١٢٧)، وهو من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

وقرأ الكسائيُّ وابنُ عامر: «لَتُرونَّ» بضمِّ التاء[١]، من أَرَيْتُه الشيءَ، أي: تُحشرون إليها فترونها. وعلى فتح التاء هي قراءةُ الجماعة، أي: لتَرُونَّ الجحيم بأبصاركم على البعد. ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: مشاهدةً. وقيل: هو إخبارٌ عن دوام مُقامِهم في النار، أي: هي رؤيةٌ دائمةٌ متَّصلةٌ. والخطابُ على هذا للكفار.

وقيل: معنى «لو تَعْلَمُونَ عِلمَ اليقينِ» أي: لو تعلمون اليومَ في الدنيا عِلْمَ اليقين فيما أمامكم ممَّا وصفتُ، «لَتَرَوُنَّ الجحِيمَ» بعيون قلوبكم؛ فإنَّ عِلْمَ اليقينِ يُريكَ الجحيم بعينِ فؤادك، وهو أنْ تَتَصَوَّر لك تاراتُ[٢] القيامةِ، وقَطْعُ مسافاتها، «ثم لَترونها عينَ اليقينِ» أي: عند المعاينةِ بعينِ الرأس، فتراها يقيناً لا تغيبُ عن عينك، «ثم لَتُسأَلُنَّ يومَئِذٍ عن النَّعِيم»: في موقف السؤال والعرض.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ روى مسلم في صحيحه[٣] عن أبي هريرة، قال: خرج رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ أو ليلةٍ، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أَخرجَكما من بُيوتِكما هذه الساعةَ؟» قالا: الجوعُ يا رسولَ الله. قال: «وأنا، والذي نفسي بيده لأَخرجَني الذي أَخرجَكما، قُوموا» فقاموا[٤] معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلمَّا رأته المرأة قالت: مَرْحَبًا وأهلاً. فقال لها رسولُ الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: [ذهب] يَسْتعذِبُ لنا من الماء. إذ جاء الأنصاريُّ، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحِبيهِ، ثم قال: الحمدُ لله! ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافاً منِّي. قال: فانْطَلَقَ، فجاءهم بِعِذْقٍ فيه بُسْرٌ وتمرٌ ورُطَبٌ، فقال: كُلوا من هذه. وأخذ المُديةَ، فقال له رسول الله ﷺ: «إياكَ والحَلُوبَ» فذبح لهم، فأكلوا من

(١) السبعة ص ٦٩٥، والتيسير ص ٢٢٥.

(٢) في (ظ): أمارات.

(٣) برقم (٢٠٣٨)، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) في (د) و(م) و(ي): قوما فقاما، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في صحيح مسلم.

الشَّاة ومن ذلك العِذق، وشربوا، فلمَّا أنْ شَبِعوا وَرَوُوا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لَتُسْأَلُنَّ عن نعيم هذا اليومِ يومَ القيامة[١]، أَخْرَجكم من بُيوتكم الجوعُ، ثم لم تَرْجِعوا حتَّى أصابكم هذا النعيم». خرَّجه الترمذيُّ وقال: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يومَ القيامة: ظِلٌّ باردٌ، ورُطَبٌ طَيِّبٌ، وماءٌ بارد» وكَنى الرجلَ الذي من الأنصار، فقال: أبو الهيثم بنُ التَّيِّهان. وذكر قصَّته[٢].

قلت: اسمُ هذا الرجلِ الأنصاريِّ مالك بنُ التَّيِّهان[٣]، ويُكْنَى أبا الهيثم. وفي هذه القصةِ يقول عبد الله بن رواحة يمدحُ بها أبا الهيثم بن التَّيِّهان[٤]:

فلم أرَ كالإسلامِ عِزًّا لأمَّةٍ ... ولا مِثلَ أضيافِ الإراشيِّ مَعْشَرَا
نبيٌّ وصِدِّيقٌ وفاروق أمَّةٍ ... وخيرُ بَني حوَّاءَ فرعاً وعُنْصُرا
فوافَوْا لِميقاتٍ وقَدْرِ قَضيةٍ[٥] ... وكان قضاءُ الله قَدراً مُقَدَّرَا
إلى رجلٍ نَجْدٍ يُباري بِجودِهِ ... شُموسَ الضُّحَى جوداً ومجداً ومَفْخَرا
وفارِسِ خلقِ اللهِ في كلِّ غارةٍ ... إذا لبِس القومُ الحديدَ المُسَمَّرَا
فَفَدَّى وحَيَّا ثم أدْنَى قِراهُمُ ... فلم يَقْرِهِمْ إلَّا سَميناً مُتَمَّرا[٦]

وقد ذكر أبو نُعيمٍ الحافظُ، عن أبي عَسِيبٍ مولى رسولِ الله ﷺ، قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ ليلاً، فدعاني فخرجتُ إليه، ثم مرَّ بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مرَّ

(١) في صحيح مسلم: لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة.
(٢) سنن الترمذي (٢٣٦٩). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
(٣) بفتح المثناة الفوقانية مع كسر الياء، آخى النبي ﷺ بينه وبين عثمان بن مظعون، وشهد المشاهد كلها. الإصابة ١٢/ ٨٣.
(٤) ذكر هذا الشعر ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ٣٤١، والاستذكار ٢٦/ ٣٢٧.
(٥) في التمهيد والاستذكار: فوافق للميقات قدر قضية.
(٦) التتمير: تقطيع اللحم صغاراً، ووقع في التمهيد والاستذكار: معمرا.

بعمرَ فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أَطْعِمْنا بُسْراً»، فجاء بعِذْقٍ فوضعه فأكلوا، ثم دعا بماءٍ فشرب، فقال: «لَتُسْأَلُنّ عن هذا يومَ القيامة» قال: وأخذ عمرُ العِذْق، فضرب به الأرضَ حتى تناثر البسرُ نحوَ وجهِ رسولِ الله ﷺ، [ثم] قال: يا رسولَ الله، إنَّا لمسؤولون عن هذا يومَ القيامة؟ قال: «نعم، إلَّا مِن ثلاثٍ: كِسْرةٍ يَسُدُّ بها جَوْعَته، أو ثوبٍ يسترُ به عَوْرَته، أو جُحْرٍ يأوي فيه من الحرِّ والقُرِّ»[(١)].

واختلف أهلُ التأويلِ في النعيم المسؤولِ عنه على عَشَرَةِ أقوالٍ:

أحدها: الأمنُ والصِّحةُ؛ قاله ابن مسعود. الثاني: الصحةُ والفراغ؛ قاله سعيد بن جبير[(٢)]. وفي البخاريِّ عنه عليه الصلاة والسلام: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحةُ والفراغ»[(٣)].

الثالث: الإدراكُ بحواسِّ السمع والبصر؛ قاله ابن عباس؛ وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦][(٤)]. وفي الصحيح عن أبي هريرة وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعبد يومَ القيامة، فيقول [الله] له: أَلَمْ أَجْعَلْ لك سَمْعاً وبصراً، ومالاً وولداً...»، الحديثَ. خرَّجه الترمذيُّ وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[(٥)].

الرابع: مَلاذُّ المأكولِ والمشروب؛ قاله جابر بن عبد الله الأنصاريّ[(٦)]. وحديث

---

(١) الحلية ٢/ ٢٧ - ٢٨ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٧٦٨)، والطبري ٢٤/ ٦٠٧ ، وابن عدي ٢/ ٨٤٧ .

(٢) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٣٢ ، وقول ابن مسعود أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٠٣ .

(٣) صحيح البخاري (٦٤١٢)، وهو عند أحمد (٢٣٤٠)، وهو من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣٢ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٦٠٤ .

(٥) سنن الترمذي (٢٤٢٨)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٣٢ ، وروي بمعناه حديث مرفوع عن جابر ﷺ، أخرجه أحمد (١٤٦٣٧)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٢٤٦ ، والطبري ٢٤/ ٦٠٥ .

أبي هريرةَ يدلُّ عليه.

الخامس: أنه الغداءُ والعشاءُ؛ قاله الحسن(١).

السادس: قولُ محكولٍ الشاميِّ: أنَّه شِبَعُ البطون، وباردُ الشراب، وظلالُ المساكنِ، واعتدالُ الخُلُقِ، ولذَّةُ النوم. ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾: يعني: عن شبع البطون...». فذكره. ذكره الماورديُّ(٢)، وقال: وهذا السؤالُ يعمُّ الكافرَ والمؤمنَ، إلَّا أنَّ سؤالَ المؤمنِ تبشيرٌ بأنْ يجمع له بين نعيمِ الدنيا ونعيمِ الآخرة. وسؤال الكافرِ تقريعٌ أنْ قابلَ نعيمَ الدنيا بالكفر والمعصية.

وقال قومٌ: هذا السؤالُ عن كلِّ نعمةٍ، إنَّما يكون في حقِّ الكفار، فقد رُوي أنَّ أبا بكرٍ لمَّا نزلت هذه الآيةُ قال: يا رسول الله، أرأيتَ أُكْلةً أَكَلْتُها معك في بيت أبي الهيثم بنِ التَّيِّهان، من خبزِ شعيرٍ ولحمٍ، وبُسرٍ قد ذَنَّب، وماءٍ عَذْبٍ، أتخافُ علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نُسأل عنه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ذلك للكُفار» ثم قرأ: ﴿وهل يُجازَى إلا الكفور﴾ [سبأ:١٧](٣). ذكره القشيريُّ أبو نصر. وقال الحسن: لا يُسأل عن النعيم إلَّا أهلُ النار(٤). قال القشيريُّ: والجمعُ بين الأخبار: أنَّ الكلَّ يُسْأَلون، ولكن سؤال الكافر توبيخ؛ لأنَّه قد ترك الشكر. وسؤال المؤمنِ سؤالُ تَشْريفٍ؛ لأنه شَكَر. وهذا النعيمُ في كلِّ نعمةٍ.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٣٢.

(٢) في النكت والعيون ٦/ ٣٣٢، وأخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨٧، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، ووقع فيه: عن ابن زيد بن أسلم عن أبيه.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٥٠٧، وتفسير الرازي ٣٢/ ٨٠ - ٨١، وهو من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (١٠٤٩٦) من طريق الكلبي عن الشعبي عن الحارث عن ابن مسعود ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣١٩: وفيه الكلبي وهو كذاب. قوله: قد ذنَّب، المذنِّب من البسر: الذي بدا فيه الإرطاب من قِبَل ذنبه. النهاية (ذنب).

(٤) الوسيط ٤/ ٥٤٩.

قلت: هذا القولُ حسنٌ؛ لأنَّ اللفظ يَعُمّ. وقد ذكر الفِرْيابيُّ قال: حدَّثنا ورقاءُ، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال: كلُّ شيءٍ من لذَّة الدنيا[1]. وروى أبو الأحوص، عن عبد الله، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الله تعالى لَيُعَدِّدُ نِعمَه على العبد يومَ القيامة، حتى يَعُدَّ عليه: سألتني فلانة أن أزوِّجَكَها ـ فيُسمِّيها باسمها ـ فزوَّجْتُكَها»[2].

وفي الترمذيِّ عن أبي هريرةَ قال: لمَّا نزلت هذه الآيةُ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال الناس: يا رسولَ الله، عن أيِّ النعيم نُسْأَل؟ فإنَّما هما الأسودان، والعدوُّ حاضرٌ، وسيوفُنا على عواتقنا. قال: «إنَّ ذلك سيكون»[3].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أوّلَ ما يُسألُ عنه يومَ القيامةِ ـ يعني العبدَ ـ أنْ يقال له: أَلَمْ نُصِحَّ لك جسمَكَ، ونرويكَ من الماء البارد» قال: حديثٌ غريب[4].

ورُوي من حديثِ ابنِ عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا كان يومُ القيامةِ دعا الله بعبدٍ من عباده، فيوقفُه بين يديه، فيسألُه عن جاهه كما يسألُه عن ماله»[5]. والجاهُ من نعيم الدنيا لا محالةَ.

وقال مالك رحمه الله: إنَّه صحةُ البدنِ، وطِيْبُ النفس[6]. وهو القولُ السابع.

---

(١) الورع لأحمد ص١٨٧ ، والتمهيد ٢٤/ ٣٤٣ وعنه نقل المصنف.

(٢) أخرجه ابن فضيل الضبي في كتاب الدعاء (١٤١)، وله شاهد من حديث عبد الله بن سلام ﷺ أخرجه البيهقي موقوفاً ومرفوعاً في الشعب (٤٦١٠) و(٤٦١١).

(٣) سنن الترمذي (٣٣٥٧). وأخرجه أحمد (١٤٠٥)، والترمذي (٣٣٥٦) من حديث الزبير ﷺ، وقال الترمذي عن حديث الزبير: حديث حسن. وأخرجه أحمد (٢٣٦٤٠) من حديث محمود بن لبيد ﷺ.

(٤) سنن الترمذي (٣٣٥٨).

(٥) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/ ١٣٧ ، والطبراني في الصغير (١٨)، وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٦٢٨ ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٥٣٤). قال ابن حبان: هذا الحديث لا أصل له من كلام النبي ﷺ.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٣ .

وقيل: النومُ مع الأمنِ والعافية.

وقال سفيان بنُ عيينة: إنَّ ما سَدَّ الجوعَ وسَتَر العورةَ من خَشِنِ الطعامِ واللباسِ، لا يُسألُ عنه المرءُ يومَ القيامة، وإنَّما يُسألُ عن النَّعيم، قال: والدليلُ عليه: أنَّ الله تعالى أَسْكَنَ آدمَ الجنةَ، فقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه:١١٨-١١٩][١]. فكانت هذه الأشياءُ الأربعةُ - ما يَسدُّ به الجوعَ، وما يَدفعُ به العطشَ، وما يَستَكِنُّ فيه من الحرِّ، وما يَسْتُر به عَورتَه - لآدمَ عليه السلامُ بالإطلاق[٢]، لا حسابَ عليه فيها؛ لأنَّه لا بدَّ له منها.

قلت: ونحوُ هذا ذكره القشيريُّ أبو نصر، قال: إنَّ ممَّا لا يُسألُ عنه العبدُ: لباساً يُواري سوأتَه، وطعاماً يُقيمُ صُلْبَه، ومكاناً يُكِنُّه من الحرِّ والبرد.

قلت: وهذا منتزعٌ من قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس لابنِ آدمَ حَقٌّ في سِوى هذه الخصالِ: بيتٍ يسكنُه، وثوبٍ يُواري عورتَه، وجِلْفِ الخبزِ والمَاء» خرَّجه الترمذيُّ[٣]. وقال النضر بن شُميل: جِلْفُ الخبز: ليس معه إدام.

وقال محمد بن كعب: النعيم: هو ما أنعم الله علينا بمحمدٍ ﷺ. وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤][٤].

وقال الحسن أيضاً والمفضَّل[٥]: هو تخفيفُ الشرائع، وتيسيرُ القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا

(١) التمهيد ٢٤/ ٣٤٠.

(٢) في (د): لازم عليه بالإطلاق، بدل: لآدم عليه السلام بالإطلاق.

(٣) في سننه (٢٣٤١) من حديث عثمان بن عفان ﷺ، وهو حديث لا يصح كما سلف الكلام ٥/ ٥٧.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٣٢، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٢.

(٥) في (ظ): والفضل، وليست في (ز)، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ٣٣٢، والكلام منه، وذكره البغوي ٤/ ٥٢٢، والرازي ٣٢/ ٨٢، وفيهما: وقال الحسين بن الفضل، وينظر ما سيأتي ص٥٢١ من هذا الجزء.

ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قلت: وكلٌّ هذه نِعمٌ، فيُسأل العبدُ عنها: هل شَكَرَ ذلك أم كَفَر. والأقوالُ المتقدِّمةُ أَظْهَر. والله أعلم.

تفسير سورة التكاثر

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ .

يقول تعالى : شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ،وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر ، وصرتم من أهلها ؟!

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا زكريا بن يحيى الوَقار المصرى ، حدثنى خالد بن عبد الدايم ، عن ابن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ عن الطاعة ، ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ : حتى يأتيكم الموت» (١) .

وقال الحسن البصرى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ فى الأموال والأولاد .

وفى صحيح البخارى ، فى « الرقاق » منه : وقال لنا أبو الوليد : حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك ، عن أبى بن كعب قال : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يعنى : « لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة : سمعت قتادة يحدث عن مُطْرِّف ـ يعنى ابن عبد الله بن الشِّخِّير ـ عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ، يقول ابن آدم : مالى مالى . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت ؟ » .

ورواه مسلم والترمذى والنسائى ، من طريق شعبة ، به (٢).

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنا سُوَيد بن سعيد ، حدثنا حفص بن ميسرة ، عن العلاء ، عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« يقول العبد : مالى مالى ؟ وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فاقتنى (٣)، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » .تفرد به مسلم (٤) .

(١) وهذا معضل ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف .
(٢) المسند (٤/ ٢٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٨) وسنن الترمذى برقم (٣٣٥٤) وسنن النسائى (٦/ ٢٣٨) .
(٣) فى أ : « فأبقى » .
(٤) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٩) .

وقال البخارى : حدثنا الحُمَيدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، سمع أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ : « يتبع الميت ثلاثةٌ ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد : يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » .

وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى ، من حديث سفيان بن عيينة ، به (١).

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن شعبة ، حدثنا قتادة ، عن أنس : أن النبى ﷺ قال : «يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنتان : الحرص والأمل » . أخرجاه فى الصحيحين (٢) .

وذكر الحافظ ابن عساكر ، فى ترجمة الأحنف بن قيس (٣) ــ واسمه الضحاك ــ أنه رأى فى يد رجل درهما فقال : لمن هذا الدرهم ؟ فقال الرجل : لى . فقال : إنما هو لك إذا أنفقته فى أجر أو ابتغاء شكر . ثم أنشد الأحنف متمثلا قول الشاعر :

أنتَ للمال إذا أمسكتَه ... فإذا أنفقتَه فالمالُ لَكْ

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة قال : صالح بن حيان حدثنى عن ابن بريدة فى قوله : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ . قال : نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار ،فى بنى حارثة وبنى الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثلُ فلان بن فلان ، وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا (٤) بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور . فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ؟ يشيرون إلى القبر ــ ومثل فلان ؟ وفعل الآخرون مثل ذلك ، فأنزل الله : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ ، لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل .

وقال قتادة : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ : كانوا يقولون نحن أكثر من بنى فلان(٥) ، ونحن أعَدُّ من بنى فلان ، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم ،والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم .

والصحيح أن المراد بقوله : ﴿ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أى : صرتم إليها ودفنتم فيها ، كما جاء فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده ، فقال : « لا بأس ، طهور إن شاء الله » . فقال : قلت : طَهُور ؟! بل هى حمى تفور ، على شيخ كبير ، تُزيره القبور ! قال : «فنَعَم إذاً » (٦) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا محمد بن سعيد الأصبهانى ، أخبرنا حكام بن سلم الرازى ، عن عمرو بن أبى قيس ، عن الحجاج ، عن المِنْهال ، عن زر بن حُبَيش ، عن على قال: ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٦٠) وسنن الترمذى برقم (٢٣٧٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (٢٠٦٤) .
(٢) المسند (٣/ ١١٥) وصحيح البخارى برقم (٦٤٢١) وصحيح مسلم برقم (١٠٤٧) .
(٣) تاريخ دمشق (٨/ ٤٤٣ « المخطوط ») .
(٤) فى م : « وتفاخروا » .
(٥) فى أ : « من بنى إسرائيل » .
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٦٦٢،٥٦٥٦، ٧٤٧٠) .

ورواه الترمذى عن أبى كُرَيب ، عن حكّام بن سلم [١] ، [به] [٢]، وقال : غريب [٣] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سلمة بن داود العُرضى [٤] ، حدثنا أبو المليح الرقى ، عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز ،فقرأ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ .حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ فلبث هُنَيهة [٥] فقال : يا ميمون ، ما أرى المقابر إلا زيارة ، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله .

قال أبو محمد : يعنى أن يرجع إلى منزله ــ إلى جنة أو نار . وهكذا ذُكرَ أن بعضَ الأعراب سمع رجلا يتلو هذه الآية : ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ فقال : بُعثَ اليوم [٦] وربِّ الكعبة . أى : إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره .

وقوله : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ : قال الحسن البصرى : هذا [٧] وعيد بعد وعيد .

وقال الضحاك : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعنى : الكفار ، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعنى : أيها المؤمنون .

وقوله : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أى : لو علمتم حق العلم ، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة ،حتى صرتم إلى المقابر .

ثم قال : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم ، وهو قوله : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تَوعَّدَهم بهذا الحال ، وهى رؤية النار [٨] ، التى إذا زفرت زفرة خرّ كل ملك مقرب ، ونبى مرسل على ركبتيه ، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال ، على ما جاء به الأثر المروى فى ذلك .

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ أى : ثم لتسئلن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم ، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك . ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا زكريا بن يحيى الخزاز [٩] المقرى ،حدثنا عبد الله ابن عيسى أبو خالد الخزاز ،حدثنا يونس بن عبيد ، عن عكرمة ،عن ابن عباس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : خرج رسول الله ﷺ عند الظهيرة ، فوجد أبا بكر فى المسجد فقال : « ما أخرجك هذه الساعة ؟ » قال : أخرجنى الذى أخرجك يا رسول الله . قال : وجاء عمر بن الخطاب فقال : «ما أخرجك يا ابن الخطاب ؟ » قال أخرجنى الذى أخرجكما . قال : فقعد عمر ، وأقبل رسول الله ﷺ يحدثهما ، ثم قال : « هل بكما من قوة ، تنطلقان إلى هذا النخل فتصيبان طعاماً وشراباً

(١) فى أ : « سليم » .
(٢) زيادة من م ، أ .
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٥٥) .
(٤) فى أ : « العرمى » .
(٥) فى أ : « هنية » .
(٦) فى أ : «القوم » .
(٧) فى أ : « هو » .
(٨) فى م : « أهل النار » .
(٩) فى أ : « الجزار » .

وظلا؟» قلنا : نعم . قال : « مُروا بنا إلى منزل ابن التَّيهان أبى الهيثم الأنصارى » . قال : فتقدم رسول الله ﷺ بين أيدينا ، فسلم واستأذن ـ ثلاث مرات ـ وأم الهيثم من وراء الباب تسمع الكلام، تريد أن يزيدها رسول الله ﷺ من السلام ، فلما أراد أن ينصرف خرجت أم الهيثم تسعى خلفهم ، فقالت : يا رسول الله ، قد ـ والله ـ سمعت تسليمك ، ولكن أردت أن تزيدنا من سلامك . فقال لها رسول الله ﷺ : « خيراً » . ثم قال : « أين أبو الهيثم ؟ لا أراه » . قالت : يا رسول الله ، هو قريب ذهب يَستعذبُ الماء ، ادخلوا فإنه يأتى الساعة إن شاء الله ،فبسطت ـ بساطا تحت شجرة ، فجاء أبو الهيثم ففرح بهم وقرت عيناه بهم ، فصعد على نخلة فصرم لهم أعذاقاً ، فقال له رسول الله ﷺ : « حَسْبُكَ يا أبا الهيثم » . قال : يا رسول الله ،تأكلون من بُسره ، ومن رطبه ، ومن تَذْنُوبه، ثم أتاهم بماء فشربوا عليه ، فقال رسول الله ﷺ: « هذا من النعيم الذى تسألون عنه»[1] . هذا غريب من هذا الوجه .

وقال ابن جرير : حدثنى الحُسَين بن على الصدائى ، حدثنا الوليد بن القاسم ، عن يزيد بن كيسان ، عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : بينما أبو بكر وعمر جالسان ، إذ جاءهما النبى ﷺ فقال: « ما أجلسكما هاهنا ؟ » قالا : والذى بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع . قال : «والذى بعثنى بالحق ما أخرجنى غيره » . فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار ،فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبى ﷺ : « أين فلان ؟ » فقالت : ذهب يستعذب [2] لنا ماء . فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال : مرحبا ، ما زار العباد شىء أفضل من شىء [3] زارنى اليوم . فعلق قِرْبَتَه بكرب نخلة [4] ،وانطلق فجاءهم بعذْق ، فقال النبى ﷺ : « ألا كنت اجتنيت » ؟ فقال : أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم . ثم أخذ الشفرة ، فقال النبى ﷺ : « إياك والحلوب ؟ » فذبح لهم يومئذ ، فأكلوا . فقال النبى ﷺ : « لتسئلن عن هذا يوم القيامة . أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا ، فهذا من النعيم » [5] .

ورواه مسلم من حديث يزيد بن كيسان ، به [6] .ورواه أبو يعلى وابن ماجة ، من حديث المحاربى، عن يحيى بن عُبيد الله ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، عن أبى بكر الصديق ، به [7] . وقد رواه أهل السنن الأربعة ، من حديث عبد الملك بن عمير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، بنحو من هذا السياق وهذه القصة [8] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج ، حدثنا حشرج ، عن أبى نُصرة ، عن أبى عسيب ـ يعنى

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٩/٢٥٣) من طريق زكريا بن يحيى ، عن عبد الله بن عيسى ، به . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣١٧) : « فيه عبد الله بن عيسى ـ أبو خلف ـ وهو ضعيف » .

(٢) فى م : « ليستعذب » . (٣) فى م : « من نبى » . (٤) فى أ : « بكور نخلته » .

(٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٨٥) .

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٠٣٨) .

(٧) مسند أبى يعلى (١/٧٩) وسنن ابن ماجة برقم (٣١٨١) .

(٨) سنن أبى داود برقم (٥١٢٨) وسنن الترمذى برقم (٢٨٢٢) ، (٢٣٦٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٩٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٤٥) .

مولى رسول الله ـ قال : خرج رسول الله ﷺ ليلا فمر بى، فدعانى فخرجت إليه ،ثم مر بأبى بكر فدعاه فخرج إليه ، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه ، فانطلق حتى أتى [١] حائطا لبعض الأنصار ،فقال لصاحب الحائط : « أطعمنا » . فجاء بِعذْق فوضعه ،فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه ، ثم دعا بماء بارد فشرب ، وقال : « لتسئلن عن هذا يوم القيامة » . قال : فأخذ عُمَرُ العذْقَ فضَرب به الأرض ، حتى تناثر البُسرُ قبل رسول الله ﷺ ثم قال : يا رسول الله ، إنا لمسؤول [٢] عن هذا يوم القيامة ؟ قال : « نعم ، إلا من ثلاثة : خرقة لف بها الرجل عورته ، أو كسرة سَدَّ بها جوعته ، أو جحر تَدخَّل فيه من الحر والقر » [٣] . تفرد به أحمد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد ، حدثنا عمار ، سمعت جابر بن عبد الله يقول : أكل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رطباً ، وشربوا ماء ،فقال رسول الله ﷺ : « هذا من النعيم الذى تسألون عنه » .

ورواه النسائى ، من حديث حماد بن سلمة [عن عمار بن أبى عمار عن جابر] [٤] ، به [٥] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا محمد بن عمرو ،عن صفوان بن سليم، عن محمود [٦] بن الربيع قال : لما نزلت :﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ، فقرأ حتى بلغ : ﴿ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قالوا : يا رسول الله ، عن أى [٧] نعيم نُسأل ؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر ،وسيوفنا على رقابنا ، والعدو حاضر ، فعن أى نعيم نسأل ؟ قال [٨] : « أما إن ذلك سيكون » [٩] .

وقال أحمد : حدثنا أبو عامر ، عبد الملك بن عمرو ،حدثنا عبد الله بن سليمان ، حدثنا معاذ ابن عبد الله بن خُبيب ، عن أبيه ، عن عمه قال : كنا فى مجلس فطلع علينا النبى ﷺ وعلى رأسه أثر ماء ،فقلنا : يا رسول الله ، نراك طيب النفس . قال : « أجل » . قال : ثم خاض الناس فى ذكر الغنى ،فقال رسول الله ﷺ : « لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم » .

ورواه ابن ماجة،عن أبى بكر بن أبى شيبة،عن خالد بن مخلد،عن عبد الله بن سليمان، به[١٠].

وقال الترمذى : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا شبابة ،عن عبد الله بن العلاء ، عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزم الأشعرى قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال النبى ﷺ : « إن أول ما يسأل عنه ــ يعنى يوم القيامة ــ العبد من النعيم أن يقال له : ألم نُصِحّ لك جسمك ، ونُرْوكَ من الماء البارد ؟ » .

---

(١) فى أ : «حتى دخل » .
(٢) فى م ، أ : « إنا لمسؤولون » .
(٣) المسند (٥/ ٨١) .
(٤) زيادة من أ .
(٥) المسند (٣/ ٣٥١) وسنن النسائى (٦/ ٢٤٦) .
(٦) فى أ : « عن محمد » .
(٧) فى م : « أى يوم » .
(٨) فى م : « فقال » .
(٩) المسند (٥/ ٤٢٩) .
(١٠) المسند (٥/ ٣٧٢) وسنن ابن ماجة برقم (٢١٤١) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١٥٨) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

تفرد به الترمذى . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، من طريق الوليد بن مسلم ، عن عبد الله بن العلاء بن زَبْر ، به (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا سفيان ، عن محمد بن عمرو ، عن يحيى بن حاطب ، عن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لما نزلت : ﴿ [ثُمَّ] (٢) لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قالوا: يا رسول الله ، لأى نعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ قال: « إن ذلك سيكون » . وكذا رواه الترمذى وابن ماجة ، من حديث سفيان ـــ هو ابن عيينة ـــ به (٣) . ورواه أحمد عنه (٤) ، وقال الترمذى : حسن .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبد الله الظهرانى ، حدثنا حفص بن عمر العَدَنى ، عن الحكم ابن أبان ، عن عكرمة قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قالت الصحابة : يا رسول الله ، وأى نعيم نحن فيه ، وإنما نأكل فى أنصاف بطوننا خبز الشعير ؟ فأوحى الله إلى نبيه ﷺ : قل لهم : أليس تحتذون النعال ، وتشربون الماء البارد ؟ فهذا من النعيم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا محمد بن سليمان بن الأصبهانى، عن ابن أبى ليلى ـــ أظنه عن عامر ـــ عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ [ثُمَّ](٥) لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قال : « الأمن والصحة »(٦) .

وقال زيد بن أسلم ، عن رسول الله ﷺ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ يعنى : شبع البطون، وبارد الشراب ، وظلال المساكن ، واعتدال الخلق ، ولذة النوم . رواه ابن أبى حاتم بإسناده المتقدم ، عنه فى أول السورة .

وقال سعيد بن جبير : حتى عن شربة عسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا . وقال الحسن البصرى : نعيم الغداء والعشاء ، وقال أبو قِلابة : من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقى . وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قال : النعيم : صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العباد فيما استعملوها ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء:٣٦] .

وثبت فى صحيح البخارى ، وسنن الترمذى والنسائى وابن ماجه ، من حديث عبد الله بن سعيد ابن أبى هند ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣٣٥٨) وصحيح ابن حبان برقم (٧٣٢٠) « الإحسان » .
(٢) زيادة من أ .
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٥٦) وسنن ابن ماجة برقم (٤١٥٨) .
(٤) المسند (١/ ١٧٤) .
(٥) زيادة من أ .
(٦) ورواه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد برقم (٨٥٥) من طريق محمد بن سليمان الأصبهانى ، به .

الناس : الصحة والفراغ » [١] .

ومعنى هذا : أنهم مقصرون فى شكر هاتين النعمتين ، لا يقومون بواجبهما ، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه ، فهو مغبون .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا القاسم بن محمد بن يحيى المروزى ، حدثنا على بن الحسن ابن شقيق ، حدثنا أبو حمزة ، عن ليث ، عن أبى فزارة ، عن يزيد بن الأصم ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : « ما فوق الإزار ، وظل الحائط ، وخُبْز ، يحاسب به العبد يوم القيامة ، أو يسأل عنه » [٢] ، ثم قال : لا نعرفه إلا بهذا الإسناد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بَهْزُ وعفان قالا : حدثنا حماد ـ قال عفان فى حديثه : قال إسحاق ابن عبد الله ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « يقول الله ، عز وجل ـ قال عفان : يوم القيامة ـ : يابن آدم ، حملتك على الخيل والإبل ، وزوجتك النساء ، وجعلتك تَرْبَع [٣] وترأس ، فأين شكر ذلك ؟ » [٤] . تفرد به من هذا الوجه .

آخر تفسير سورة « التكاثر » [٥] [ولله الحمد والمنة] [٦]

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٤١٢) وسنن الترمذى برقم (٢٣٠٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤١٧٠) .
(٢) مسند البزار برقم (٣٦٤٣) « كشف الأستار » وليث بن أبى سليم ضعيف .
(٣) فى أ : « ترتع » .
(٤) المسند (٢/٤٩٢) .
(٥) فى م : « ألهاكم » .
(٦) زيادة من أ .

سورة التكاثر[1]

مكّيّة،[2] وهي ثماني[3] آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ⑧﴾

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أي: شغلكم التغالب في الكثرة والتفاخر بها. رُوي أنّ بني عبد مَناف وبني سهم تفاخروا وتعادّوا وتكاثروا بالسادة والأشراف في الإسلام، فقال كلّ مِن الفريقين: نحن أكثر منكم سيّدًا، وأعزّ عزيزًا، وأعظم نفرًا، فكثَرهم[4] بنو عبد مَناف، فقال بنو سهم:[5] إنّ البغيَ أفنانا في الجاهليّة، فعادُونا بالأحياء والأموات، فكثَرهم بنو سهم.[6]

والمعنى أنّكم تكاثرتم بالأحياء ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي: حتّى إذا استوعبتُم عددهم صرتُم إلى التفاخر والتكاثر بالأموات، فعُبّر عن بلوغهم ذِكر الموتى بزيارة القبور تهكُّمًا بهم. وقيل: كانوا يزورون المقابر فيقولون: هذا قبر فلان، وهذا قبر فلان، يفتخرون بذلك. وقيل: المعنى ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متّم، وقُبرتم، مضيِّعين أعماركم في طلب الدنيا، معرِضين عمّا يهمّكم

---

[1] س: أَلْهَىٰكُمُ.
[2] س – مكّيّة.
[3] س: تسع.
[4] س: فكثُرهم. | وفي هامش م: أي: غلَبهم.
[5] بنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، بطن مِن بطون قريش في زمن الإسلام، كان له مِن الولد سعد وسعيد، فمِن بني سعد بن سهم قيس بن عديّ، ومِن بني سعيد بن سهم العمرين. انظر: قلائد الجمان للقلقشندي، ص ١٤١.
[6] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٩٩.

مِن السعي لأخراكم، فيكون زيارة القبور عبارةً عن الموت.[١] وقُرئ: "أَأَلْهَاكُمْ"[٢] على / الاستفهام التقريري. [٣١٨و]

﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه على أنّ العاقل ينبغي ألّا يكون معظم همّه مقصورًا على الدنيا، فإنّ عاقبة ذلك وخيمة. ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ سوء مغبّة ما أنتم عليه إذا عاينتُم عاقبته.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكرير للتأكيد، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنّ الثانيَ أبلغُ مِن الأول، أو الأوّل عند الموت، أو في القبر، والثاني عند النشور.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين، أي: كعلمكم ما تستيقنونه، لفعلتم ما لا يوصف ولا يُكتنه، فحُذف الجواب للتهويل.

وقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ جواب قسم مضمَر أكِّد به الوعيد، وشدِّد به التهديد، وأُوضِح به ما أُنذروه بعد إبهامه تفخيمًا.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تكرير للتأكيد، أو الأولى إذا رأتهم مِن مكان بعيد، والثانية إذا وردوها، أو المراد بالأولى المعرفة، وبالثانية المشاهدة والمعاينة ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: الرؤية التي هي نفس اليقين، فإنّ عِلم المشاهدة أقصى مراتب اليقين.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: عن النعيم الذي ألهاكم الالتذاذ به عن الدِّين وتكاليفه، فإنّ الخطاب مخصوص بمَن عكف هِمّته على استيفاء اللذات، ولم يعش إلّا ليأكل الطيّب ويلبَس الليّن، ويقطع أوقاته باللهو والطرب، لا يعبأ بالعِلم والعمل، ولا يُحمِّل نفسه مشاقّهما، فأمّا مَن تمتّع بنعمة الله تعالى، وتقوّى بها على طاعته، وكان ناهضًا بالشكر، فهو مِن ذلك بمَعزِل بعيد. وقيل: الآية مخصوصة بالكفّار.[٣]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة التكاثر لم يحاسبه الله تعالى بالنعيم الذي أنعم به عليه في دار الدنيا، وأُعطيَ مِن الأجر كأنّما قرأ ألف آية».[٤]

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٩/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مالك بن دينار. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٥١.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٦٥/٣.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠١/٣٠-٢٠٢ (التكاثر، ١/١٠٢)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٤٨/٤ (التكاثر، ١/١٠٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

وكان أصحابُ رسول الله ﷺ ـ كما أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال ـ يسمُّونها المقبرة[1].

وهي مكية، قال أبو حيان[2]: عند جميع المفسرين. وقال الجلال السيوطي[3]: على الأشهر، ويدلُّ لكونها مدنيةً ـ وهو المختارُ ـ ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن بريدة[4] فيها قال: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار: في بني حارثة وبني الحارث، تفاخَروا وتكاثَروا، فقالت إحداهما: فيكم مثلُ فلان وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك. تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثلُ فلان ـ تشير إلى القبر ـ ومثل فلان؟ وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلخ.

وأخرج البخاري وابن جرير عن أبيٍّ بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن: «لو أنَّ لابن آدم واديين من مال لتمنَّى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا الترابُ، ثم يتوبُ الله على مَن تاب» حتى نزلت: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلخ[5].

وأخرج الترمذي وابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن علي كرم الله تعالى

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٨٦، وتحرف في الأصل و(م) سعيد إلى: سعد. وهو سعيد بن أبي هلال الليثي مولاهم، أبو العلاء المصري، من رجال التهذيب.

(٢) في البحر ٨/ ٥٠٧.

(٣) في الإتقان ١/ ٤١.

(٤) في الأصل و(م): أبي بريدة، وهو خطأ، والمثبت من الإتقان.

(٥) صحيح البخاري (٦٤٣٩) و(٦٤٤٠)، وتفسير الطبري ٢٤/ ٥٩٩.

وجهه: ما زلنا نَشُكُّ في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[١].

وعذابُ القبر لم يذكر إلا في المدينة كما في الصحيح في قصة اليهودية[٢]. انتهى.

ولقوة الأدلة على مدنيتها قال بعض الأجلة[٣]: إنه الحقُّ.

وآيها ثمان بالاتفاق، وهي تعدل ألفَ آية من القرآن؛ أخرج الحاكم والبيهقي في «الشعب» عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا يستطيع أحدُكم أن يقرأ ألفَ آية في كلِّ يوم»؟ قالوا: ومَن يستطيع أن يقرأ ألفَ آية؟ قال: «أما يستطيع أحدُكم أن يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾؟»[٤].

وأخرج الخطيب في «المتفق والمفترق» والديلمي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلة ألفَ آية لقي الله تعالى وهو ضاحكٌ في وجهه». فقيل: يا رسول الله، مَن يَقْوَى على ألف آية؟ فقرأ سورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلى آخرها؛ ثم قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده إنها لتعدِلُ ألفَ آيةٍ»[٥].

وذكر ناصر الدين بن الميلق[٦] في سرِّ ذلك: أنَّ القرآن ستةُ آلافٍ ومئتا آيةٍ وكسر، فإذا تركنا الكسرَ كان الألف سُدُسَ القرآن، وهذه السورة تشتمل على سُدُس من مقاصد القرآن فإنها[٧] على ما ذكره الغزالي ستة:

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٥٥)، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٠٠، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه وغيرهما السيوطي في الدر ٦/ ٣٨٧.

(٢) صحيح البخاري (١٣٧٢) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) هو الشهاب في حاشيته ٨/ ٣٩٤.

(٤) المستدرك ١/ ٥٦٦-٥٦٧، وشعب الإيمان (٢٥١٨).

(٥) المتفق والمفترق ١/ ٤٠١، وفي إسناده محمد بن جعفر الأنصاري، قال الخطيب: مجهول، والحديث غير ثابت. اهـ.

(٦) هو محمد بن عبد الدائم الشاذلي ناصر الدين ابن بنت الميلق، اعتنى بالعلم. وعانى طريق التصوف، وقال الشعر الرائق، كان واعظاً بليغاً، ولي القضاء وتوفي سنة (٧٩٧هـ). إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ٣/ ٢٧١-٢٧٢.

(٧) أي: مقاصد القرآن.

ثلاثة مهمَّة: وهي تعريفُ المدعوِّ إليه، وتعريفُ الصراط المستقيم، وتعريفُ الحال عند الرجوع إليه عز وجل.

وثلاثة مُتِمَّة: وهي تعريف أحوال المطيعين، وحكاية أقوال الجاحدين، وتعريفُ منازل الطريق.

وأحدُها معرفة الآخرة المشارُ إليه بـ: تعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى، المشتمل عليه السورة، والتعبير على هذا المعنى بألفِ آية أفخم وأجلُّ من التعبير بالسدس. انتهى. والأمرُ ـ والله تعالى أعلم ـ وراءَ ذلك.

ومناسبتها لِمَا قبلَها ظاهرة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي: شَغَلَكم، وأصلُ اللهو الغَفْلةُ، ثم شاع في كلِّ شاغل، وخصَّه العرفُ بالشاغل الذي يسرُّ المرءَ، وهو قريبٌ من اللعب، ولذا وَرَد بمعناه كثيراً، وقال الراغب(١): اللهو ما يشغلك عما يَعني ويُهِمُّ.

وقيل ـ وليس بذاك ـ: المراد به هنا الغفلةُ، والمعنى: جعلكم لاهين غافلين.

﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أي: التباري في الكثرة والتباهي بها بأن يقول هؤلاء: نحن أكثرُ. وهؤلاء: نحن أكثر.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ حتى إذا استَوْعَبْتُم عددَ الأحياء صرتم إلى المقابر وانتقلتم إلى ذكْرِ مَن فيها، فتكاثرتُم بالأموات. فالغاية داخلة في المغيَّا، وقد تقدَّم مِن سبب النزول ما يوضح ذلك.

وعن الكلبيِّ ومقاتل أنَّ بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيُّهم أكثرُ عدداً،

(١) في المفردات (لهي).

فكَثَرَتْهم بنو عبد مناف، فقالت بنو سهم: إنَّ البغي أهلَكَنا في الجاهلية، فعادُّونا بالأحياء والأموات. فكَثَرَتْهم بنو سهم[(١)].

وزيارة المقابر على ما تقدَّم على ظاهرِها، وأما على هذا فقد عبّر بها عن بلوغهم ذكرَ الموتى كنايةً أو مجازاً، واستُحسن جعلُه تمثيلاً.

وفي «الكشاف»[(٢)]: عبِّر بذلك عما ذُكر تهكُّماً بهم. ووجَّهه بعضٌ بأنَّه كأنَّه قيل: أنتم في فعلكم هذا كمن يزور القبورَ مِن غير غرضٍ صحيح. وبعضٌ آخرُ بأنَّ زيارةَ القبور للاتعاظ وتذكُّر الموت، وهم عَكَسوا فجعلوها سبباً للغفلة. وهذا أولى[(٣)]، والمعنى: ألهاكم ذلك، وهو لا يَغْنِيكم ولا يُجدي عليكم في دنياكم وآخرتكم عما يَعْنيكم من أمر الدين الذي هو أهمُّ وأَعْنَى من كلِّ مهمٍّ.

وحذف المُلهَى عنه للتعظيم المأخوذ من الإبهام بالحذف، والمبالغةِ[(٤)] في الذمِّ، حيثُ أشار إلى أنَّ ما يُلهي مذمومٌ فضلاً عن المُلهِي عن أمر الدين.

وقيل: المراد: ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن مُتم وقُبِرتم مُنفِقين أعمارَكم في طلب الدنيا والاشتياقِ إليها والتهالكِ عليها إلى أن أتاكم الموتُ لا هَمَّ لكم غيرُها، عما هو أولى بكم من السعي لعاقبتكم والعملِ لآخرتكم.

وصدره[(٥)] قد أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس، وهو وابن أبي حاتم وابن أبي شيبة عن الحسن[(٦)]. وزيارة المقابر عليه عبارةٌ عن الموت، كما قال الشاعر:

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٩٩، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠. وفي هامش الأصل زيادة: وقال قتادة: نزلت في اليهود، قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان. اهـ. وقول قتادة في المصدرين السابقين.

(٢) ٤/ ٢٨١.

(٣) في هامش الأصل: ومما يفرَّق به بين الوجهين أن المُلهي في هذا مما يهمُّ أيضاً، وإن كان المُلْهَى عنه أهمّ، ولوحظ في الأول عدم أهمية المُلهي أصلاً. اهـ.

(٤) قوله: والمبالغة، معطوف على قوله: للتعظيم.

(٥) في الأصل فوق هذه الكلمة: إلى: إلى أن مُتم.

(٦) قول ابن عباس عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٦/ ٣٨٧، وقول الحسن في مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٢٠.

إنـي رأيـتُ الـضَّـمْـدَ(١) شـيـئـاً نُـكْـرَا
لـن يُـخْـلِـصَ الـعـامَ خـلـيـلٌ عِـشْـرَا
ذاقَ الـضـمـادَ أو يـزورَ الـقَـبْـرَا(٢)

وقال جرير:

زار الـقـبـورَ أبـو مـالـك فـأصـبـح أَلْأَمَ زُوَّارِهـا(٣)

وفي ذلك إشارةٌ إلى تحقُّق البعث، يُحكى أنَّ أعرابيًّا سمع ذلك فقال: بُعِث القومُ للقيامة وربِّ الكعبة، فإن الزائر منصرفٌ لا مقيمٌ(٤).

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال: لا بدَّ لمن زار أن يَرجع إلى جنةٍ أو نارٍ(٥).

وفيه أيضاً إشارةٌ إلى قِصَر زمن اللبث في القبور، والتعبيرُ بالماضي لتحقُّق الوقوع، أو لتغليبِ مَن مات أولاً، أو لجعل موتِ آبائهم بمنزلةِ موتهم. ومما يُقضى منه العجبُ قولُ أبي مسلم: إنَّ الله عز وجل يتكلَّم بهذه السورة يومَ القيامة تعييراً للكفَّار، وهم في ذلك الوقت قد تقدَّمت منهم زيارةُ القبور(٦).

وقيل: هذا تأنيبٌ على الإكثار من زيارة القبور تكثُّراً بمن سلف ومباهاةً

---

(١) جاء في هامش الأصل: في الفائق: ضَمْدُ المرأة: جمعها خليلين. اهـ. وينظر الفائق للزمخشري ٢/ ٣٤٨.

(٢) جمهرة اللغة ٣/ ٤٧٧-٤٧٨، والكشاف ٤/ ٢٨١، وقال ابن دريد: الضَّمْد أن يصادق الرجل امرأتين أو ثلاثاً، وكذلك المرأة، وعِشْراً: يعني المعاشرة، يقول: من ذاق الضماد واعتاده لم يُخلص معاشرةَ صديقٍ أبداً. اهـ. والأبيات في تهذيب اللغة ١٢/ ٦، واللسان وتاج العروس (ضمد) لمُدرِك بن حصن. وروايتهم: ذات الضماد. وعندهم وعند ابن دريد: لا يُخلصُ الدهرَ.

(٣) ديوان جرير ص٢٣٥.

(٤) البحر ٨/ ٥٠٧.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير، والدر المنثور ٦/ ٣٨٧ بلفظ: ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بدٌّ من أن يرجع إلى منزله. وزاد ابن كثير: قال أبو محمد: يعني: أن يرجع إلى منزله، أي: إلى جنة أو نار.

(٦) تفسير الرازي ٣٢/ ٧٧.

وتفاخراً به، لا اتِّعاظاً وتذكُّراً للآخرة كما هو المشروع. ويُشير إليه خبرُ أبي داود: «نهيتكم عن زيارة القبور، فزُوروها فإنَّها تُذكِّركم الآخرة»[1].

ولا يخفى أنَّ الآية بمعزل عن ذلك، نعم لا كلامَ في ذمِّ زيارة القبور للتفاخر بالمَزُورِ أو للتباهي بالزيارة كما يفعل كثيرٌ من الجهلة المنتسبين إلى المتصوِّفة في زياراتهم لقبور المشايخ عليهم الرحمة، هذا مع ما لهم فيها من منكراتٍ اعتقدوها طاعاتٍ، وشنائعَ اتخذوها شرائعَ، إلى أمورٍ تضيق عنها صدورُ السطور.

وقرأ ابن عباس وعائشة ومعاوية وأبو عمران الجوني وأبو صالح ومالك بن دينار وأبو الجوزاء وجماعة: «آلهاكم» بالمدِّ على الاستفهام[2].

وروي عن أبي بكر الصديق ﷺ وابن عباس أيضاً والشعبي وأبي العالية وابن أبي عبلة والكسائي في روايةٍ: «أألهاكم» بهمزتين[3]. والاستفهامُ للتقرير.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن الاشتغال بما لا يعنيه عمَّا يعنيه، وتنبيهٌ على الخطأ فيه لأنَّ عاقبتَه وخيمةٌ.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ سوءَ مغبَّةِ ما أنتم عليه إذا عاينتم عاقبتَه. والعلمُ بمعنى المعرفة المتعدِّية لواحد.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ تكريرٌ للتأكيد، و«ثم» للدلالة على أنَّ الثاني أبلغُ، كما يقول العظيم لعبده: أقول لك ثم أقول لك: لا تفعل. قيل: ولكونه أبلغَ نزل منزلةَ المغايِر[4] فعُطف، وإلا فالمؤكِّد لا يعطف على المؤكَّد لِمَا بينهما من شدَّة الاتصال. وأنتَ تعلم أنَّ المنع هو رأي اللُّغويين، وقد صرَّح المفسِّرون والنحاة بخلافه.

---

(١) سنن أبي داود (٣٢٣٥)، وأخرجه أيضاً الترمذي (١٠٥٤) وقال: حديث حسن صحيح، وهو من حديث بريدة ﷺ، وأخرجه مسلم (٩٧٧) دون قوله: «فإنها تذكركم...».

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٤، والبحر ٨/ ٥٠٨.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) في (م): المغايرة.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: الأول في القبور[١]، والثاني في النشور. فلا تكرير، والتراخي على ظاهره، ولا كلام في العطف.

قال الضحاك: الزجر الأول ووعيدُه للكافرين، وما بعدُ للمؤمنين[٢]. وهو خلاف الظاهر.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ أي: لو تعلمون مابين أيديكم علمَ الأمر المتيقَّنِ، أي: كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور. فالعلم مضافٌ للمفعول، و«اليقين» بمعنى المتيقَّن صفةٌ لمقدَّر. وجوَّز أبو حيان[٣] كون الإضافة من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: العلمَ اليقينَ. وفائدةُ الوصف ظاهرةٌ بناءً على أنَّ العلم يُطلَق على غير اليقين.

وجواب «لو» محذوفٌ للتهويل، أي: لو تعلمون كذلك لفعلتم ما لا يوصف ولا يُكْتَنَه، أو: لشَغَلَكم ذلك عن التكاثُر وغيره. أو نحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ جوابُ قَسَمٍ مضمَرٍ أُكِّد به الوعيد وشدِّد به التهديد، وأوضح به ما أُنذِرُوه بعد إبهامه تفخيماً، ولا يجوز أن يكون جواب «لو» الامتناعية؛ لأنه محقَّق الوقوع، وجوابها لا يكون كذلك.

وقيل: يجوز، ويكون المعنى: سوف تعلمون الجزاءَ، ثم قال سبحانه: لو تعلمون الجزاءَ علمَ اليقين الآن لترون الجحيمَ، يعني تكون الجحيم دائماً في نظركم لا تغيب عنكم. وهو كما ترى.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تكريرٌ للتأكيد، و«ثم» للدلالة على الأبلغية. وجوِّز أن تكون الرؤيةُ الأولى إذا رأتهم من بعيد، والثانية[٤] إذا وردوها أو إذا دخلوها. أو الأولى إذا وردوها، والثانية إذا دخلوها. أو الأولى المعرفة، والثانيةُ المشاهدة والمعاينة.

---

(١) في الأصل فوق هذه الكلمة ما نصه: وقيل: عند الموت. اهـ منه. وقول علي ﷺ في البحر ٨/ ٥٠٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٠١، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٠.

(٣) في البحر ٨/ ٥٠٨.

(٤) في (م): الثاني. وهو تصحيف.

وقيل: يجوز أن يكون المراد: لترونَّ الجحيمَ غيرَ مرةٍ. إشارةً إلى الخلود، وهذا نحو التثنية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: ٤]. وهو خلافُ الظاهر جدًّا.

﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ أي: الرؤية التي هي نفس اليقين، فإنَّ الانكشافَ بالرؤية والمشاهدة فوق سائر الانكشافات، فهو أحقُّ بأن يكون عينَ اليقين، فـ «عين» بمعنى النفس، مثله في نحو: جاء زيدٌ نفسُه. وهو صفةُ مصدر مقدَّر، أي: رؤيةً عينَ اليقين، والعامل فيه «لتَرَوُنَّها». وجوِّز أن يكون متنازعاً فيه للفعلين قبله، وفي إطلاقه كلامٌ لا أظنه يخفى عليك.

واليقين في اللغة على ما قال السيد السند[1]: العِلْم الذي لا شكَّ فيه. وفي الاصطلاح: اعتقادُ الشيء أنَّه كذا مع اعتقادِ أنه لا يمكن إلا كذا اعتقاداً مطابقاً للواقع غيرَ ممكن الزوال.

وقال الراغب: اليقين من صفة العلم فوقَ المعرفة والدراية وأخواتهما، يقال: علم يقين، ولا يقال: معرفة يقين. وهو سكونُ النفس مع ثبات الفهم[2].

وفسَّر السيِّد اليقينَ بما سمعتَ، ونَقَل عن أهل الحقيقة عدةَ تفسيرات فيه، وعلمَ اليقين بـ: ما أعطاه الدليل من إدراك الشيء على ما هو عليه. وعينَ اليقين بـ: ما أعطاه المشاهدة والكشف، وجَعَلَ وراء ذلك حقَّ اليقين[3]، وقال على سبيل التمثيل: علمُ كلِّ عاقل بالموت علمُ اليقين، وإذا عايَنَ الملائكة عليهم السلام فهو عين اليقين، وإذا ذاقَ الموتَ فهو حقُّ اليقين[4].

ولهم غير ذلك، ومَبْنَى أكثرِ ما قالوه على الاصطلاح فلا تغفل.

وقرأ ابن عامر والكسائي: «لَتُرَوُنَّ» بضم التاء[5].

---

(١) هو الجرجاني، وكلامه في كتابه التعريفات ص٣٣٢.

(٢) المفردات (يقن)، وفيه: .... وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم.

(٣) جاء في الأصل: وفسَّره بفناء العبد في الحق والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً، وهو اصطلاح صوفي. اهـ منه. والكلام في التعريفات ص١٢٠.

(٤) ينظر التعريفات ص٢٠١، ٢٠٦، ١٢٠-١٢١.

(٥) التيسير ص٢٢٥، والنشر ٢/ ٤٠٣.

وقرأ علي كرم الله وجهه وابن كثير في رواية وعاصم كذلك بفتحها في «لَتَرَوُنَّ» وضمِّها في «لَتُرَوُنَّها». ومجاهد وأشهب وابن أبي عبلة بضمها فيهما(١).

وروي عن الحسن وأبي عمرو بخلافٍ عنهما أنهما همزا الواوين(٢)، ووُجِّه بأنَّهم استثقلوا الضمَّة على الواو فهمزوا للتخفيف كما همزوا في ﴿أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: ١١] وكان القياس ترك الهمز؛ لأنَّ الضمة حركة عارضة لالتقاء الساكنين فلا يعتدُّ بها، لكنْ لَمَّا لزمت الكلمةَ بحيث لا تزول أَشْبَهتِ الحركةَ الأصلية فهمزوا، وقد همزوا من الحركة العارضة التي تزول في الوقف نحو «اشْتَرَؤُا الضلالة»(٣)، فالهمز من هذه أولى.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ قيل: الخطاب للكفار، وحُكي ذلك عن الحسن ومقاتل، واختاره الطيبيُّ، والنعيم عامٌّ لكلِّ ما يتلذَّذ به من مطعم ومشرب ومفرش ومركب، وكذا قيل في الخطابات السابقة. وقد رُوي عن ابن عباس أنَّه صرَّح بأنَّ الخطاب في ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ للمشركين، وحملوا الرؤية عليه على رؤية الدخول، وحملوا السؤال هنا على سؤال التقريع والتوبيخ لِمَا أنهم لم يشكروا ذلك بالإيمان به عز وجل.

والسؤال قيل: يجوز أن يكون بعدَ رؤية الجحيم ودخولها، كما يُسألون كذلك عن أشياء أُخر على ما يُؤذِن به قولُه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨] وقوله سبحانه: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] وذلك لأنَّه إذ ذاك أشدُّ إيلاماً وأدعى للاعتراف بالتقصير، فـ «ثمّ» على ظاهرها. وأن يكون في موقف الحساب قبل الدخول، فتكون «ثمَّ» للترتيب الذِّكْريِّ.

وقيل: الخطاب مخصوصٌ بكلِّ مَن ألهاه دنياه عن دينه، والنعيمُ مخصوصٌ

---

(١) زاد المسير ٩/ ٢٢٠، والبحر ٨/ ٥٠٨.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٩، والبحر ٨/ ٥٠٨.

(٣) البحر ٨/ ٥٠٨، وقراءة الهمز أجازها الكسائي كما في القراءات الشاذة ص٢، والدر المصون ١/ ١٥١، وهي لغة قيس كما في المحتسب ١/ ٥٥، وضعفها ابن جني، والنحاس في إعراب القرآن ١/ ١٩٢-١٩٣، وأبو البقاء في الإملاء ١/ ٦٠.

بما شغله عن ذلك؛ لظهور أنَّ الخطاب في (أَلْهَىٰكُمُ) إلخ للمُلْهين فيكون قرينةً على ما ذُكِر، وللنصوص الكثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] و﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥١] وهذا أيضاً يحمل السؤالَ على سؤال التوبيخ، ويدخل فيما ذُكر الكفارُ وفَسَقَةُ المؤمنين.

وقيل: الخطاب عامٌّ، وكذا السؤال يعمُّ سؤالَ التوبيخ وغيرَه، والنعيمُ خاصٌّ، واختلف فيه على أقوال:

فأخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» عن ابن مسعود مرفوعاً: «هو الأمن والصحة»(١).

وأخرج البيهقي عن الأمير عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: «النعيم»: العافية(٢).

وأخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء مرفوعاً: «أكلُ خبز البرِّ، والنومُ في الظلِّ، وشرب ماء الفرات مبرَّداً»(٣).

وأخرج ابن جرير عن ثابت البنانيِّ مرفوعاً: «النعيم المسؤولُ عنه يوم القيامة كسرةٌ تقوته، وماءٌ يرويه، وثوبٌ يواريه»(٤).

وأخرج الخطيب عن ابن عباس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يفسِّره قال: «الخصاف والماء وفِلَقُ الكِسَر»(٥). ورُوي عنه وعن جابر أنه ملاذُّ المأكول والمشروب(٦).

وقال الحسين بن الفضل: هو تخفيف الشرائع وتيسير القرآن(٧).

---

(١) الزهد ص٤٦٧.
(٢) شعب الإيمان (٤٦١٢).
(٣) أورده أيضاً عن أبي الدرداء الديلميُّ في مسند الفردوس (٢٥٤٦).
(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٠٩، والحديث مرسل.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٩١، وهو في تاريخ مدينة دمشق ٤٧/ ١٢.
(٦) قول جابر في النكت والعيون ٦/ ٣٣٢، وقول ابن عباس في التفسير الكبير ٣٢/ ٨٢، وروي بمعناه حديث مرفوع عن جابر ﷺ، أخرجه أحمد (١٤٦٣٧)، والطبري ٢٤/ ٦٠٥.
(٧) تفسير البغوي ٤/ ٥٢٢، وتفسير الرازي ٣٢/ ٨٢.

ويروى عن جابرٍ الجُعْفيِّ من الإمامية قال: دخلتُ على الباقر رضي الله عنه، فقال: ما يقول أربابُ التأويل في قوله تعالى: (لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ)؟ فقلت: يقولون: الظلُّ والماء البارد. فقال: لو أنك أدخلتَ بيتَك أحداً وأقعدتَه في ظلٍّ وسقيتَه، أتمُنُّ عليه؟ قلتُ: لا. قال: فالله تعالى أكرم من أن يُطعِم عبدَه ويَسقيه ثم يسأله عنه. قلتُ: ما تأويله؟ قال: النعيم هو رسولُ الله ﷺ أنعم الله تعالى به على أهل العالم فاستنقذهم به من الضلالة، أما سمعتَ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾[1] [آل عمران: ١٦٤].

ومن رواية العياشي من الإمامية أيضاً أنَّ أبا عبد الله رضي الله عنه قال لأبي حنيفة رضي الله عنه في الآية: ما النعيم عندك يا نعمان؟ فقال: القوت من الطعام، والماء البارد. فقال أبو عبد الله: لئن أوقفك الله تعالى بين يديه حتى يسألك عن كلِّ أكلةٍ أكلتَها أو شربةٍ شربتَها ليطولَنَّ وقوفُك بين يديه. فقال أبو حنيفة: فما النعيم؟ قال: نحن أهلَ البيت النعيمُ، أنعم الله تعالى بنا على العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا ألَّف الله تعالى بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداء، وبنا هداهم إلى الإسلام، وهو النعمة التي لا تنقطع، والله تعالى سائلُهم عن حقِّ النعيم الذي أنعم سبحانه به عليهم وهو محمد وعترته عليه وعليهم الصلاة والسلام[2].

وكِلَا الخبرين لا أرى لهما صحةً، وفيهما ما ينادي على عدم صحتهما كما لا يخفى على مَن ألقى السمع وهو شهيد.

والحقُّ عموم الخطاب والنعيم، بيدَ أن المؤمن لا يثرَّب عليه في شيء ناله منه في الدنيا، بل يُسأل غيرَ مثرَّب، وإنما يثرَّب على الكافر كما ورد ذلك في حديث رواه الطبراني عن ابن مسعود[3].

ويدلُّ على عموم الخطاب ما أخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/ ٨٢.

(٢) مجمع البيان ٣٠/ ٢٢٤.

(٣) في المعجم الكبير (١٠٤٩٦)، وفيه محمد بن السائب الكلبي، وهو كذاب. ينظر مجمع الزوائد ١٠/ ١١٩.

ماجه وآخرون عن أبي هريرة قال: خرج النبي ﷺ ذات يوم، فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: «ما أَخْرَجَكُما مِن بُيوتِكُما هذه السَّاعةَ»؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «والذي نَفْسِي بيدِه لأَخْرَجَني الذي أَخْرَجَكُما، فقُوموا» فقاموا معه عليه الصلاة والسلام، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلمَّا رأته ﷺ المرأة قالت: مرحباً. فقال النبي ﷺ: «أين فلانٌ»؟. قالت: انطلَقَ يَستعذِب لنا الماء. إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى النبي ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله، ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافاً مني. فانطلق فجاء بعِذقٍ فيه بُسر وتمرٌ، فقال: كلوا من هذا. وأخذ المديةَ، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحَلوبَ» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلمَّا شبعوا ورَوُوْا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتُسأَلُنَّ عن هذا النعيم يومَ القيامة»(١).

وفي رواية ابن حبان وابن مردويه عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ وصاحبيه انطلقوا إلى منزل أبي أيوب الأنصاريِّ، فقالت امرأته: مرحباً بنبي الله ﷺ ومَن معه. فجاء أبو أيوب فقطع عذقاً، فقال النبي ﷺ: «ما أردتُ أن تقطع لنا هذا، ألا جنيتَ من تمره؟» قال: أحببتُ يا رسولَ الله أن تأكلوا منه تمره وبُسره ورُطَبه. ثم ذبح جَدْياً فشَوَى نصفَه وطبخ نصفَه، فلمَّا وضع بين يدي النبيِّ ﷺ أخذ من الجَدْي، فجعله في رغيفٍ، وقال: «يا أبا أيوب، أبلِغْ هذا فاطمةَ - رضي الله عنها - فإنها لم تُصِب مثلَ هذا منذ أيام». فذهب به أبو أيوب إلى فاطمة رضي الله عنها، فلما أكلوا وشبعوا قال النبيُّ ﷺ: «خبزٌ ولحمٌ، وتَمْر وبُسْرٌ ورُطَبٌ - ودَمَعَتْ عيناه عليه الصلاة والسلام - والذي نفسي بيده إن هذا لهو النعيمُ الذي تُسألون عنه، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فهذا النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة». فكَبُر ذلك على أصحابه، فقال عليه الصلاة والسلام: «بلى، إذا أصبتُم مثلَ هذا فضربتم بأيديكم فقولوا: بسم الله.

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٣٨)، وسنن الترمذي (٢٣٦٩)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦٣٣)، وسنن ابن ماجه (٣١٨٠) و(٣١٨١). وعزاه لأبي داود السيوطي في الدر ٦/ ٣٨٩، ولم نقف عليه في سننه.

فإذا شبِعتُم فقولوا: الحمد لله الذي أشبَعَنا وأنعَمَ علينا وأفضل. فإنَّ هذا كفافٌ بذاك»[١].

وليس المراد في هذا الخبر حصرَ النعيم مطلقاً فيما ذُكر، بل حصر النعيم بالنسبة إلى ذلك الوقت الذي كانوا فيه جياعاً، وكذا فيما يصحُّ من الأخبار التي فيها الاقتصار على شيء أو شيئين أو أكثر، فكلُّ ذلك من باب التمثيل ببعض أفراد خُصَّت بالذكر لأمر اقتضاه الحالُ، ويؤيِّد ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام في غير رواية عند ذكر شيء من ذلك: «هذا من النعيم الذي تُسألون عنه» بـ «من» التبعيضية.

وفي «التفسير الكبير»: الحقُّ أنَّ السؤال يعمُّ المؤمنَ والكافرَ عن جميع النِّعَم، سواءٌ كان ما[٢] لا بدَّ منه أو لا؛ لأنَّ كلَّ ما يَهَبُ الله تعالى يجب أن يكون مصروفاً إلى طاعته سبحانه لا إلى معصيته عز وجل، فيكون السؤالُ واقعاً عن الكلِّ، ويؤكِّده قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا تزول قدما العبد حتى يُسأَل عن أربع: عن عمره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيمَ أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عَمِل به»[٣]، لأنَّ كلَّ نعيم داخل فيما ذكره عليه الصلاة والسلام[٤].

ويُشْكِلُ عليه ما أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» والديلميُّ عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ لا يُحاسَب بهنَّ العبدُ: ظلُّ خُصٍّ يَستظلُّ به، وكسرةٌ يَشُدَّ بها صلبَه، وثوبٌ يُواري به عورتَه»[٥].

وأجيب بأنَّه إن صحَّ فالمراد: لا يناقشُ الحسابَ بهنَّ. وقيل: المراد: ما يضطرُّ العبد إليه من ذلك لحياته. فتأمَّل.

---

(١) صحيح ابن حبان (٥٢١٦)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٦/ ٣٨٩.

(٢) في التفسير الكبير: مما.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤١٦)، وقد سلف عند تفسير الآية (٢٤) من سورة الصافات.

(٤) تفسير الرازي ٣٢/ ٨٢-٨٣.

(٥) الزهد ص١٨، وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (١٠٣٦٨)، ولم نقف عليه عند الديلمي.

ورأيتُ في بعض الكتب أنَّ الطعام الذي يُؤكل مع اليتيم لا يُسأَل عنه، وكأنَّ ذلك لأنَّ في الأكل معه جبراً لقلبه وإزالةً لوحشته، فيكون ذلك بمنزلة الشكر، فلا يُسأل عنه سؤالَ تقريع. وفي القلب من صحَّة ذلك شيء. والله تعالى أعلم.